سلسلة دراسات قرآنيَّة

﴿ ١ ﴾

أزمـــة الإنسانيـــة

ودور القرآن الكريم في الخلاص منها

طه جابر العلواني

دار الشروق

٢٠٠٥م

التعريف بالمؤلف

طه جابر العلواني

* من مواليد العراق عام ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م.

* ليسانس من كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر عام ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م.

* ماجستير كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر عام ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

* دكتوراه أصول الفقه، كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر ١٣٩٢هـ - ١٩٧٣م.

* عضو مجمع الفقه الإسلامي الدولي بجدة.

* شارك في تأسيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

* رئيس المجلس الفقهي لأمريكا الشمالية.

* رئيس جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية SISS في الولايات المتحدة.

آثاره

١. تحقيق كتاب "المحصول من علم أصول الفقه" لفخر الدين الرازي، ستة مجلدات.

٢. الاجتهاد والتقليد في الإسلام.

٣. أصول الفقه الإسلامي: منهج بحث ومعرفة.

٤. التعددية: أصول ومراجعات بين الاستتباع والابداع.

٥. الأزمة الفكرية ومناهج التغيير.

٦. أدب الاختلاف في الإسلام.

٧. إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم.

٨. حاكمية القرآن.

٩. الجمع بين القرآتين.

١٠. مقدمة في إسلامية المعرفة.

١١. اصلاح الفكر الإسلامي.

قائمة المحتويات

الصفحة

الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلـــة دراســـات قرآنيَّـــة

مقدمة السلسلة

الحمد لله رب العالمين، نستغفره ونستعينه ونستهديه ونصلي ونسلم على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأتباعه الغر الميامين، وحملة الرسالة من بعده، والـــداعين إلى سبيله وهديه إلى يوم الدين. وبعد:

فإنَّني ما اعتدت أن احتفي بما أكتب، أو أمنحه كبير اهتمام، أو أســـعى لنـــشره، والترويج له؛ إذ يكفيني من ذلك أن ألقى الله – تبارك وتعالى – وقد أجريت قلمي بما فيه نفع لعباده، ثم هم – بعد ذلك – بالخيار إن شاءوا اهتموا بذلك الذي كتب، وإن شاءوا أهملوه. وكل ما أرجوه أن يتقبَّله الله – جل شأنه - منّي، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم، ويجعل ما قلت أو كتبت قولاً سديداً، وما قد يشتمل عليه من فكر رأياً رشيداً، واجتهاداً مصيباً، فإن كان كذلك فله الحمد والمنّة، فهو سبحانه الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، وهو الذي خلق الإنسان وعلمّه البيان.

وقد قيّض الله – تبارك وتعالى – أخوة أعزة أُلهموا الاهتمام بما أكتب فنـــشرت لي مجموعة من الكتب قاربت العشرين كتاباً، ولولا لطف التدبير الإلهيّ –الذي جعل أفئـــدة هؤلاء الأخوة تهوى بعض ما أكتب أو أحاضر – لما أمكن نشر شيء من ذلك. فإنّني مع كثرة المؤسسات التي انتسبت إليها، والهيئآت التي تشرفت برئاستها أو عضويَّتها، والمجلات التي قدّر لي الاتصال بها – حين أفكر في النشر أشعر بتهيُّب كبير، وتردُّد وفير، خشية أن يكون ما اعتزم نشره لم يستوف حقه من العناية، أو أنَّه قد يكون قليل النفع للقارئين، أو أنَّه غير مناسب للوقت ولكن الله – تعالى – قد قيّض لي فيمن قيضهم من الأخوة الأحبة الأخ الأستاذ محي الدين عطية الذي كان كثير التشجيع لي على الكتابة - حين ســـعدت

بصحبته في أمريكا وفي مصر- — وعلى النشر، وإتاحة ذلك للقارئين، وكثيراً ما كان يقرأ لي ما أكتب ويراجعه ويعينني بملاحظات قيّمة تسدّد وترشّد. وكذلك الـــصديق العزيـــز حجة الإسلام الأخ عبد الجبار الرفاعي- أحد تلامذة الشهيد الصدر، وأحد أساتذة الحوزة الكرام — الذي أبدى اهتماماً كبيراً بما أنتج، وحملني على الاقتناع بأهميته وضرورة إتاحته للقراء وإعطائهم فرصة الاطلاع عليه، ثم لهم — بعد ذلك — أن يحكموا له أو عليه. وقـــد يكون ذلك مساعداً على التصحيح والمراجعة، وإعادة النظر في ضوء ملاحظات القـــراء، وطرائقهم في تقييم ما يطلعون عليه، ولم يقتصر كرمه على ذلك فقط، بل أخذ — جـــزاه الله عنِّي خير الجزاء - على عاتقه رغم انشغالاته الكثيرة إعداد كثير من إنتـــاجي ســـواء أكان بحوثاً أو مقدِّمات كتب أو محاضرات ووضعها في شكل كتب تحمـــل مواصـــفات الكتب من حيث التناسب والتناسق، ووحدة الموضوع والتصنيف والتصحيح والفهرسة.

وبذلك أزال مخاوفي وتردُّدي، فخولته — جزاه الله خيراً — بـــذلك. فبـــادر بنـــشر مجموعة من إنتاجي بكتب ما كان لها أن تظهر لولا توفيـــق الله — تعـــالى — ثم جهـــده وتشجيعه. وقد بدأت الثقة بما أكتب — بفضل الله — تقوى عندي كلما رأيـــت كتابـــاً جديداً يصدره أخواني، خاصة أخي — حجة الإسلام — الرفاعي، وينال الرضى من القرَّاء.

وهذه السلسلة التي أقدم لها في "علوم القرآن" أو في "الدراســـات القرآنيَّـــة" قـــد اشتملت على محاولات عديدة لتناول قضايا قرآنيَّة. كتبت في أوقـــات مختلفـــة لمقاربـــة (المنهج والمنهجية المعرفية القرآنيَّة). والرابط بينها وحدة موضوعها الأساسيّ، وهـــو — "علوم القرآن" من حيث علاقتها بالمنهج والمنهجيَّة — وإنّني لأرجو أن تساعد الباحثين في " علوم القرآن " على سلوك سبيل ممهّد إلى حدٍ ماّ " نحو المنهجيَّة المعرفيّة القرآنيَّة ". ومع كل ما بذلته من جهد فإنّني أرجو من القارئ الكريم أن لا يبخل عليّ بملاحظاته ونقـــده ومقترحاته فإنّ الإنسان محل النسيان:

ومن ذا الذي تُرضِى سجاياه كلُّها **** كفى المرءَ نُبلاً أن تُعدَّ معايبه

والشكر موصول لأخي العزيز المهندس عادل المعلم الذي قـــرّر أن يتعاهـــد هـــذه السلسلة، ويخرجها بحلَّة قشيبة تليق بجلال القرآن وعظمته، وإبراز منهجيَّته المعرفيَّة. سائلاً

العلي القدير أن يجزل ثوابه في الدارين، وأن لا يحرمني صادق مودته وإخائه. إنّــه سميــع مجيب.

كلمة لابد منها

"المفبركان الباطل" لا "الفرقان الحق"(١)

فيما كنت أعد الحلقات الأولى من "الدراسات القرآنيّة" للنشر إذا بكتـــاب تافـــه متهالك لفقته مجموعة من "صنائع المرجفين" و"مأجورى الدَّجالين" في بـــلاد المـــسلمين، لموالاة الضرب على أدمغتهم، وتدمير ثقتهم بالله ثم بدينهم، ومصادر هذا الدين، وبخاصة "المصدر المنشئ للدين والكاشف عنه" القرآن المجيد الكريم المكنون.

الكتاب التافه نعته المرجفون" بالفرقان الحق" زيادة في التضليل، وإمعاناً في الاستهتار بالإسلام والمسلمين، ومصادر الإسلام. ويبدو أن هؤلاء المرجفين قد غرّهم هـــذا الحـــال التعيس الذي يعيشه المسلمون، ويتخبطون فيه – اليوم – فسوَّل لهم طغيانهم وشـــياطينهم ودجاجلتهم، وصوروا لهم أنَّ الطريق للإجهاز على المسلمين وإنهاء أمتـــهم، وتـــدميرهم بضربة قاضية صار سالكاً، وذلك باللَّغو في مصدر بناء شخصيَّتهم الإســـلاميَّة، وإقامـــة أمَّتهم، والتأليف بين قلوبهم، وتحقيق وحدتهم، وينبوع الهدى، ومصدر النور، وكتاب الحق والحقيقة، وحافظ رسالات النبيِّين كافة.

اعتداء على البشريّة كلها:

وما درى المرجفون أنَّهم بذلك لا يضرون بالمسلمين وحدهم، بل يعتـــدون علـــى البشريَّة كلّها. وذلك لأنّ الدين الذي جاء به المرسلون – كافَّة– حفظه هذا الكتاب الذي يحمل في سوره وآياته خلاص البشرية، ومنهج إنقاذها من تـــدمير الـــضالّين ومـــؤامرات المستكبرين، الذين يريدون بذلك ليطفئوا نور الله، ويحرموا البشريَّة من الحصول على "دليل خلاص" وسبيل إنقاذ يكشف ظلم الظالمين.وعدوان الطغاة المتجبّرين، وأعداء الحياة لتخلو الساحة – بعد ذلك – لهم وللشياطين – لو نجحوا - خذلهم الله – للعبـــث بمقـــدَّرات البشريَّة، وإذلال شعوبها ، وتدمير الحياة على الأرض، والقضاء على الإنسانيَّة. إنّهـــم لم يجدوا عدواً ليتخذوه عدواً غير القرآن الذي جعله الله كتاباً هادياً منيراً مـــشرقاً، معـــادلاً

[1] نشرت جريدة "الأسبوع"القاهرية في عددها رقم"٣٧٣" بتاريخ٢٠٠٤/٥/٣ تقريراً مفصلاً عن هذا "المفبركان الباطل" ثم أعادت نشره في عددها الأسبوعي "٤٠٣" بتاريخ السادس من ديسمبر ٢٠٠٤. بقلم الأستاذ مصطفى بكرى. كما أن مجموعة "المفبركان" نشرت "بالانترنت" أجزاء أعطى لكل مجموعة تخريفات وأباطيل منها اسم "سورة". هدم الله عليه أسوارهم، ودمر عليهم ديارهم.

للكون وحركته مستوعباً لسننه وقوانينه، مصدِّقاً للأنبياء كافَّة، وحافظاً ومهيمناً على كتبهم، ومجدِّداً لرسالاتهم ، لم يجدوا غير هذا القرآن - نبيّاً لا يمكن قتله، ورسولاً مقيماً تستحيل محاصرته وإبادته. لقد حرَّفوا التوراة من قبل:[... يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِه وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ...](المائدة:١٣) [فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ] (البقرة:٧٩) – وجعلوا ما أنزل الله على موسى " قراطيس يخفونها" ويُبدون منها ما يناسب أهوائهم. وما أنزل الله إلا كتاباً واحداً على موسى - عليه السلام - هو التوراة، لا كتباً مختلفة متعددة متناقضة. وحرَّفوا الإنجيل، واختلفت طوائفهم فيه فصار لكل طائفة منهم إنجيلها الخاص، وما أنزل الله إلا إنجيلا واحداً على قلب عيسى بن مريم – عليه السلام –حرّفوه فحرموا أنواره.

وكيف يهتدون وقد ضلوا ؟ وإذ لم يجدوا لله بينهم كلمة صادقة ثابتة هداهم شيطانهم فعمدوا إلى القرآن المجيد لعلهم ينالون منه مثل ما نالوا من التوراة والإنجيل، فلِمَ لا يحاولون؟ خاصّة وأن بمقدورهم – الآن - أن يستخدموا آخر ما بلغته البشرية من وسائل تقنية لترويج باطلهم، ونشر تخريفاتهم وأضاليلهم؟!

القرآن حافظ رسالات الله كلّها:

لاشك أنهم قد اكتشفوا في القرآن الدين كله: حنيفيَّة إبراهيم وصحف وتوراة موسى وألواحه، وانجيل عيسى الصحيح الذي لم تمتد إليه يد التحريف لأن القرآن قد حفظه، وضمَّه إليه مثل ما ضم صحف إبراهيم وموسى ودعائم وأركان رسالات الأنبياء والمرسلين كافّة. إنَّ القرآن قد أحبط محاولات أجدادهم وأسلافهم في تحريف التوراة والإنجيل حيث صدَّق القرآن عليها وهيمن ، وأعاد كتب وصحف الأنبياء صادقة كما أنزلت على أولئك المرسلين من عهد نوح مروراً برسالة إبراهيم وموسى وعيسى حتى محمد عليهم – جميعاً – الصلاة والسلام. فلم يعد لهم أي سبيل إلى تحريفها وقد صدَّق القرآن عليها وهيمن.

لقد ظن هؤلاء الأغبياء أنَّهم بفبركة ما فبركوا إنَّما يحاربون الإسلام والمسلمين – وحدهم – وما دروا أنَّهم بذلك إنَّما يحاربون الله ورسله كافَّة، فهم يحاربون بهذا نوحاً

وإبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف وإسماعيل وموسى وعيسى وسائر النبيِّين ثم محمـــداً — عليهم جميعاً — أفضل الصلاة والتسليم، إنَّهم بذلك يزيدون في تحريف أديانهم، وحجـــب حقائقها عن شعوب الأرض. ويغلقون الطريق أمام البشريّة إلى الصحيح منها، فالقرآن هو المصدر الوحيد بين أيدي البشريّة — القادر على إثبات حقائق الوجود التاريخيِّ للأنبيـــاء والرسل، وصحة الوجود التاريخيِّ لأديانهم اليهوديَّة والنصرانيَّة — معاً — فـــالعلوم الـــتي ابتكروها، وفنون النقد التي مارسوها جعلت اليهود والنصارى- خاصَّة علمـــاء الأديـــان وتاريخها — يفقدون ثقتهم بالوجود التاريخيّ لتلك الأديان ورسلها وأنبيائها، ويتشككون فيها- كلها- وجعلت من تلك الأديان وكتبها ورسلها ميادين لتجريب سبل الهدم والنقد الهادم المدمر، لا النقد البنّاء، وبما اقترفوا جعلوا منها مجرد أســـاطير اســـتقرت في ذاكـــرة وخيال الشعوب تجب المحافظة عليها باعتبارها جزءاً من " المكوِّن الثقافيّ الشعبيّ أو المخيال الثقافي " فصاروا يعيدون صياغتها وبنائها بحسب الظروف ومتطلَّباتها لتلبيـــة الحاجـــات النفسيَّة لتلك الشعوب، فهي — عندهم — بمثابة الخمور والمسكرات التي قد يطلقون عليها "المشروبات الروحيّة" يوظّفونها بالدرجات التي يريدونها، ويقرِّرونهـــا لتـــشكّل "أفيونـــاً للشعوب" يروج لها بعض الفاشلين من ساستهم ولا هويتيتهم.

حفظ الله القرآن وعصمته له:

أما "القرآن" فشأنه مختلف، فهو كتاب الله — تعالى - الذي لم يدع أمـــر حفظـــه للبشر — مثل الكتب السابقة التي أوكل الرسل الذين أنزلت عليهم حفظها إلى الحـــواريّين والربَّانيِّين والأحبار فحرَّفوها، وضيعوها: **(... بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء...)** (المائدة: ٤٤) ربما كانت حكمة الله — تعالى - في ذلك إظهار خـــصوصيَّتها — أعني اختصاصها بشعوب أولئك الأنبياء، وتاريخانيَّتها — أعني اختصاصها بمرحلة تاريخيَّة محدّدة، فيما هو غير دائم ومستمر من التشريعات والمعالجات، الخاصَّة بتلك الـــشعوب في تلك المراحل من عمر البشريَّة.

إنّ القرآن المجيد قد حفظه الله بنفسه، وتكفل بدوامه وبقائه واســـتمراره إلى يـــوم الدين: يحمل خطاباً عالميّاً، وشريعة تخفيف ورحمة عالميَّة شاملة، وأوكل إليـــه الحاكميَّـــة، وأودع فيه التصديق والهيمنة على ما سبق، وما يأتي به الناس إلى يوم الدين؛ ونسخ به كل

ما أدخله المرجفون والمحرِّفون على رسالات الأنبياء وحفظه بنفسه، وحفظ به خلاصات وثوابت رسالات المرسلين، فقد حفظه من داخله بنظمه وبيانه وأسلوبه وإعجازه. وتحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله، أو ينالوا منه بتحريف أو تغيير. وحفظه من خارجه بتهيئة الملايين عبر العصور لحفظه في الصدور وتدوينه في السطور، وتداوله صحيحاً نقيّاً معصوماً، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ فتناقلته الملايين جيلاً بعد جيل، محفوظاً في الصدور، مدوناً في السطور فلم يضع منه حرف واحد على مر الدهور.

وقد تعرض القرآن الكريم لمحاولات التحريف فلم تفلح، ولمحاولات الدس بإضافة كلمات أو حذف كلمات يتحول بمقتضاها الإيجاب إلى نفي والنفي إلى إيجاب فلم ينطل ذلك على عوام المسلمين فضلاً عن قرَّائهم وعلمائهم.

المحاولات الفاشلة للنيل من القرآن:

وكذلك تعرض لعمليَّات تحريف متقن مضلّل في الطباعة ليبدو التحريف غير مقصود، وذلك بإعجام المهمل، أو إهمال المعجم، فلم يفلح ذلك بالمرور، أو الانطلاء على عامة المسلمين فضلاً عن قرَّائهم و علمائهم.

أما ترجمات معانيه للغَّات الأخرى فقد كانت ميداناً واسعاً لتحريف معاني القرآن وتزييفها بنوايا سيئة، أو للعجز عن السمو إلى مستوى لسانه وبيانه.

وأما محاولات تقليد ظواهر لسانه، ومحاكاة تعبيراته فلم تتوقف عبر العصور، ولكنَّها شكلت أسباب سخرية واحتقار لأصحاب تلك المحاولات أظهرت طفولتهم العقليَّة، وهزيمتهم النفسيّة، وسفاهة أحلامهم، وتفاهة محاولاتهم. وما قام به هؤلاء التوافه من تأليف "مفبركَاتهم الباطل" لا يعدو أن يكون محاولة هزيلة تضاف إلى ملايين المحاولات السقيمة الفاشلة التي قام بها إخوان الشياطين عبر التاريخ، فما زادت المؤمنين بالقرآن إلا إيماناً مع إيمانهم، وما زادت إخوان الشياطين إلا عمى وضلالاً وأحقاداً. وبقي القرآن شامخاً يتحدى الجن والإنس أن يأتوا بمثل أقصر سورة من سوره فلا يأتون بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

الفرضيّات الخاطئة:

لقد بنى مؤلفو "المفبركان الباطل" ومن ورائهم من شياطين الإنس والجن "مفبركَاهم" على فرضيّة خاطئة متهافتة، خلاصتها: أنّ القرآن – في نظرهم – لا يعدو أن يكون أسماء سور، وفواصل تنتهي بها الآيات، وبعد ذلك يستطيعون أن يدسُّوا بين البدايات والفواصل ما يشاؤون من مضامين مقتبسة من الأسفار المنسوبة إلى موسى، والكتب المنسوبة إلى عيسى أو من مفترياتهم. فاستبدلوا أسماء السور بأسماء باطلة – ماأنزل الله بها من سلطان – زائفة خادعة اختاروها، وظنُّوا أنّهم بمجرّد أن يضيفوا كلمة "سورة" ستنجح الفبركة وسوف ينخدع القراء المسلمون بما افتروا وفبركوا وأنّ " الجِرسَ" الذي في الفاصلة سوف يجعل الفبركة أكثر إتقاناً، ثم هم بعد ذلك في المضامين أحرار.

فجاؤا بمزيج عجيب لا تعرفه اليهوديَّة ولا النصرانيَّة، ولا الحنيفيَّة الإبراهيميَّة ولا الإسلام، ولا أي دين آخر إلا دين الشيطان الرجيم الذي " كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ ". ولو فرض أن أحداً تأثَّر بهذا " المفبركان" فإنّه لن يجد لنفسه موقعاً في أيّة مجموعة دينيّة من هذه المجموعات لأنه لن يكون يهوديّاً ولا نصرانيّاً، ولا حنيفاً مسلماً ولا شيئاً آخر. إلا شيطاناً مريداً أو واحداً من أتباع الشيطان. لقد ذكرني شياطين "المفبركان" بواقعة حدثت لي مع إحدى حفيداتي حين كانت طفلة في السادسة من عمرها. وكانت أمها تقرؤها القرآن الكريم، فجعلتها تحفظ بعض السور ومنها " سورة النبأ" وبعد أن اطمأنت إلى حفظها السورة جاءت فرحة تدعوني لسماع السورة منها بلهجتها الطفوليَّة المحبَّبة فشرعت حفيدتي – ذات السنوات الست - تقرأ وأنا استمع إليها فيما كنت ارتدي ملابسي:"بسم الله الرحمن الرحيم عم يتساءلون(١) فارتج عليها، فبقيت تردِّد "عم يتساءلون" ولم يفتح عليها، وتعمدت أن انتظر حتى تتذكر بنفسها، وإذا بها تقول: "عم يتساءلون" ( ) جدي يلبس البنطلون ( ) فانفجرت ضاحكاً من قولها، وعجبت لتأثّر هذه الطفلة "بجِرسِ الآيات" الذي جعلها تؤلّف على الفور من واقع تشاهده عبارة تحمل ما يشبه الفواصل في السورة: "يتساءلون ( ) مختلفون ( ) سيعلمون ( ) فجاءت بتلك الجملة الغريبة المنتهية "بالواو والنون". إنّ صنيع هذه الطفلة البريئة كان أكثر اتقاناً من صنيع رجال "الكهنوت" الذين فبركوا "المفبركان الباطل".

المفبركان الباطل لا ينتمي إلى أي دين:

إنّ من يُقدَّر عليه تبنيّ ذلك "المفبركان الباطل" لن يبلغ مرتبة المشركين لو كان للشرك مرتبة. ولا وعي وخبرة قادة الجاهليِّين المشركين الذين أدركوا رغم كفرهم وشركهم وجاهليّتهم أن هذا القرآن ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ﴾ وما كان صنع بشر فإنّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسلفه لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وما هو بقول بشر. فتوقفوا عن معارضته، وفضلوا على ذلك الحروب. وبذلك احترموا أنفسهم وعقول أشياعهم فلجئوا إلى التشويش عليه، والقول بأنّه "سحر يؤثر" و"سحر مستمر"، و"إفك افتراه"، و"أساطير الأولين"، ليكسبوا الحرب النفسيَّة والثقافيَّة. فهذه الأقوال منهم – على تهافتها – وعدم إيمانهم بها، لكنّها أقوال قد ينخدع بها الجاهلون الذين يلاحظون آثار القرآن في سامعيه فيتساءلون عن سر ذلك، فيقول لهم هؤلاء: ألا ترون"أنّه يفرِّق بين الأب وأبنائه، والأزواج وأزواجهم"؟ وذلك شأن السحر المتعارف عليه عندهم!

بعض محاولات أسلاف كذابي العصر:

ولذلك لم يعارض القرآن عربيٌّ يحترم نفسه، ويحرص على ان لا يتهم بالجهل بلغة قومه.والذين حاولوا لأمراض نفسيَّة ألمت بهم، أو جنون عظمة تملكهم، أو لغيرة وحسد هيمنا عليهم جاؤا بما يضحك الثكلى. فحين نزلت – على سبيل المثال – سورة "الفجر" على رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلّم – وبلغت آياتها المعجزة مسيلمة الكذاب: ﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾...السورة. قال الكذاب: "لقد أنزل علي آنفا: "والحمام واليمام وقصور الشام ..." وذلك لتوهّم الكذّاب أنّ إعجاز القرآن منحصر في أسلوبه فإذا جاء بعبارات تُرصُّ بأسلوب معيَّن أو تُسجَع سجعاً يشبه – في خياله المريض – أسلوب القرآن كما تفهمه قريحته السقيمة فذلك كافٍ في إظهار المعارضة؛ ولذلك انطلق في بعض معارضاته التخريفيَّة التي كان يدرك أنّها لن تتجاوز ولن تعدو أن تكون مجرَّد لغو في هذا القرآن، ومحاولة تشويش على قارئيه وسامعيه، فادعى – أيضاً – أنّه قد أنزل عليه"...لقد من الله على الحبلى◉ أخرج منها نسمة تسعى◉ من بين صفاق وحَشى◉" وأوحى إليه شيطانه يوماً بقوله: "...الفيل ما الفيل◉ وما أدراك ما الفيل◉ له ذنب ونبيل◉ وخرطوم

طويل◉" كما جادت قريحته يوماً بقوله: "يا ضفدع بنت ضفدعين◉ نقيّ مـــا تـــنقين◉ نصفك في الماء ونصفك في الطين◉". كما توهّم النضر بن الحارث أن سرَّ عظمة القـــرآن وتأثر الناس به -: يكمن في قصصه التي تناولت مواقف تلك القرون من أنبيائهم ورسلهم، فراح بتحريض من مشركي قريش يتتبّع رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلّم – وهو يعرض نفسه على قبائل العرب ووفودها إلى البيت الحرام في المواسم لـــيجلس إلى تلـــك الوفود التي كان رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلّم – يجلس إليها، فيقص عليهم مـــا يعرف من أخبار فارس والروم، ويقول لهم: "ماذا ترون في قصص محمد عليكم وقصصي؟ إنّ ما جاء به محمد لا يعدو أن يكون قصصاً وأساطير كالتي أقولها لكم !!بل إنّ ما أقصُّه عليكم أكثر متعة، وأقرب إلى زمانكم ...".

هؤلاء البؤساء – جميعاً – خدعوا أنفسهم، وأوهموها بأنّ مصدر تفـــوُّق القـــرآن وتحدِّيه وإعجازه – هو وجه واحد، ذلك الذي حاولوا واهمين معارضته فيـــه ألا وهـــو السجع والقصص. وحتى هذه لم يدركوا حقائقها، ولم يرقوا لمستوى فهمها. ولو كـــان الأمر – كما توهموا- لما احتاج العرب إلى خوض المعارك والتضحية بالأموال والأبطـــال من صناديدهم في حروبهم ضد الرسول – صلى الله عليه وآله وسلّم – والقرآن؛ إذ كان يكفيهم أن يأتوا بسورة من مثله، وينتصروا عليه، ويثبتوا أنه قول بشر مثلهم.

تحدي القرآن:

لقد تحدّى القرآن الخلق – كلّهم - أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثل سوره، بل نزل إلى حد تحديهم أن يأتوا بسورة واحدة مماثلة لسوره. وتـــواتر التحـــدي، وتناقلتـــه الأجيال، وتواتر عجز الذين تحدَّاهم. ولم يستطع الخلق أن يقيموا دليلاً واحداً على عـــدم عجزهم، وما استطاعوا مع تعدُّد المحاولات وتكرارها أن يعارضوه، فعمدوا إلى الحـــروب والقتال، وبذل المهج والأرواح ونفيس المال ، لإسكات رسول الله، ومنع نور القرآن مـــن الظهور فهل أفلحوا؟!

يقول القاضي عياض في كتابه الشفاء: "فلم يزل يقرّعهم النبي – صلى الله عليه وآله وسلّم – أشد التقريع، ويوبِّخهم غاية التوبيخ، ويسفّه أحلامهم، ويحط أعلامهم، وهم في

كل هذا ناكصون عن معارضته، محجمون عن مماثلته، يخـادعون أنفسهم بالتكـذيب والإغراء بالإفتراء، وقولهم: " سحر يؤثر، وسحر مستمر، وإفك افتراه، وأساطير الأولين." وقد قال تعالى: (فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُوا) (البقرة:٢٤) فما فعلوا ولا قـدروا ومـن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة الكذاب كشف عواره لجميعهم — كما ألمحنا — ولّما سمع الوليد بن المغيرة قوله تعالى: " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ...." قال: "والله إنّ لـه لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّ أعلاه لمثمر، وما هو بكلام بـشر".- كما مر - وذكر أبو عبيدة أنّ أعرابيّاً سمع رجلاً يقرأ: "فاصدع بما تؤمر" فسجد، فقيل له في ذلك؟ فقال: "سجدت لفصاحته" (وما أفصح وأبلغ هذه الكلمات الثلاث؛ إنَّها أمـر بصياغة الخطاب الناجع المؤثّر الخالي من سائر عيوب الخطاب بحيث يتجاوز الأسمـاع إلى القلوب والبصائر والأفئدة. إنّ "اشكاليَّة الخطاب" باتت — اليوم — إشكاليَّة عالميَّة. وهذه الكلمات الثلاثة تحمل للمتدبِّرين المعالجة السليمة لهذه الإشكاليَّة في سـائر مـستوياتها، وأركانها من مخاطب ومخاطِب ورسالة أو مضمون خطاب، وكيفيَّة تقديم ذلك الخطـاب. وسمع آخر قارئاً يقرأ: " فلما استيأسوا منه خلصوا نجيّاً" فقال: "اشهد أن لا مخلوق يقـدر على مثل هذا الكلام" ولو استعرضنا ما ورد في تأثير القرآن المجيد في سامعيه لحررنـا في ذلك آلاف الصفحات!! ولا نريد أن ننقل — هنا — ما سنتناوله إن شـاء الله في الحلقـة الخاصة "بالإعجاز" التي سوف نتناول فيها سائر التفاصيل التي تندرج في ذلك الموضوع.

نظم القرآن حافظه الداخليّ:

إن "نظم القرآن" هو حافظه وحارسه الأمين من داخل. و"نظم القرآن" يقوم علـى دعائم عديدة لا يمكن لكلام بشر أن يشتمل عليها — كلّها — في وقت واحد، منها:

* وفرة الإفادة وتعدّد الدلالة وتنوّعها مع وجازة الآية واشتمالها على أدق وجـوه البيان، وأجمل أنواع البديع. يقول الإمام الرازي: "إنّ القرآن كما أنّـه معجـز بـسبب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه — هو أيضاً — معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته. ولعل الذين قالوا: "إنّه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك"[٢]

---

[2] في كتابه البلاغي المطبوع عدة طبعات: "**نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز**"القاهرة: الآداب والمؤيد.

فآيات القرآن الكريم المكنون، والعبارات والجمل التي يشتمل عليها، لها مستويات متعدّدة من الدلالة،(٣)

* فلها دلالة بحسب الوضع اللُّغويّ وتركيب الجمل، وهي مستوى من الدلالة يشاركها فيها الكلام العربيّ كلّه.

* ولها دلالة وصيغ بلاغيَّة، وهي على مستويات عليا ووجوه عديدة؛ فكلام سيد البلغاء المتقنين رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلّم – وهو " أفصح من نطق بالضاد" ثم أهل البلاغة من أصحابه وآل بيته نحو الإمام عليّ – رضي الله عنه – قد يصل إلى المستوى القريب من بلاغة بعض الجمل والعبارات القرآنيَّة وفصاحتها، لكنَّه لا يمكن أن يصل إلى مستوى بلاغة السورة مهما قصرت، ولا إلى المستويات العليا من بلاغة القرآن المجيد المعجز، ولو على مستوى الجملة.

* وهناك "الدلالات المكنونة" أو المطويَّة "فالقرآن كريم وصفه المتكلم به ومنزّله سبحانه بأنّه "مكنون" ففي ثنايا النص وفضاء آية يعثر المتدبِّرون الغواصّون على اللآلى والجواهر – عديمة النظير، وتتكشف مكنوناته كذلك عبر العصور عن معان تناسب تلك العصور بحيث تبدو كأنها لم تنزل إلا في تلك الفترة وعلى أهل ذلك العصر.

* وهذه الدلالة ذات مستويات متعدِّدة كذلك، فمنها:

● "دلالة ما يُذكر على ما يقدَّر – مثل تقدير القول، وتقدير الموصوف والصفة/ وما شابه ذلك من فنون وجوانب التقدير.

---

[3] لعل عدم إلمام غالبيَّة المترجمين للقرآن المكنون بهذه الدلالات من أهم أسباب وقوعهم في الأخطاء التي قد يقع فيها من يعتبرون حسنى النيَّة منهم . لأنَّ اللُّغات المترجم إليها لا تحمل مثل خصائص العربيَّة، خاصّة في هذا المجال. أما سيّئوا النيَّة فأولئك لهم حديث آخر.

- دلالة السياق[٤]، وذلك مستوى يدرك من التدبُّر في مواقع الجمل من الآيات والآيات من السور والسور من مجمل القرآن، وذلك بالنظر فيما قبلها وفيما بعدها لتظهر بذلك المناسبة، وتتحدد صفة الجملة وهُويَّتها في معرفة ما إذا كانت جواباً عن سؤال، أو تعليلاً لمضمون كلام سابق، أو أنّها وردت في موقع الاستدراك، أوفي موقع الدليل لما سبق. وفي سائر الأحوال فإنّ هناك وفرة في الدلالة لا يستطيع أبلغ البلغاء وأفصحهم أن يقارب أيَّ مستوى من مستويات دلالاته الوفيرة على أنواع من المعاني لا تقع تحت حصر؛ ولذلك قال من قال: "إنّه حّمال أوجه"[٥]. وذلك هو الإطلاق الذي يتفرد لسان القرآن به عن كل ما سواه فكل ما عداه داخل في دوائر النسبيَّة. أما هو فمطلق مستوعب متجاوز لكل ما عداه من كلام البشر، ومنهم الأنبياء والمرسلون، وفي الحديث الشريف: الذي رواه السيد الإمام أبو طالب – رضي الله عنه - في أماليه، والحافظ المحدِّث أبو عيسى الترمذي[٦] في جامعه من حديث الحارث بن عبد الله الهمذاني صاحب علي – رضي الله عنه - قال: مررت في المسجد، فإذا الناس يخوضون في الأحاديث. فدخلت على علّي- رضي الله عنه - فأخبرته فقال: أوَ قد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: أَمَا إنِّي سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: "ألا إنَّها ستكون فتنة، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: "كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله،

---

[4] السياق أمر ذو أهميَّة بالغة، حيث يعد "السياق" في القرآن المنتج للدلالة والموجه إلى المدلولات، ومع شدة عناية البلاغيين وكثرة حديثهم عنه غير أنهم لم يعرفوه تعريفاً جامعاً مانعاً، وكأنهم اعتبروه مما يدرك بدون تعريف، أو أنهم اكتفوا بوصفه وبيان آثاره، واستغنوا بذلك عن تعريفه. والأصوليُّون قد أبدوا اهتماماً شديداً بدلالة السياق فالسياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد... وذلك لأن دلالة النصوص نوعان: حقيقيَّة وإضافيَّة، فالحقيقيَّة تابعة لقصد المتكلم وإرادته وهذه الدلالة لا تختلف. والإضافيَّة تابعة لفهم السامع وإدراكه، وجودة فكره وقريحته وصفاء ذهنه ومعرفته بالألفاظ ومراتبها. وهذه الدلالة تختلف اختلافاً متبايناً بحسب تباين السامعين في ذلك..." راجع بدائع الفوائد لابن القيم (٩١٤-١٠) وإعلام الموقعين (٣٥٠/١- ٣٥١) وقد أوردت ابنتنا د. رقية العلواني تفاصيل هامَّة في "دلالة السياق" وتقسيمات قديمة وحديثة أوضحت هذه الدلالة بما لا يستغني الباحث في هذا المجال عن مراجعته، فراجع ذلك في رسالتها القيمَّة "أثر العرف في فهم النصوص: قضايا المرأة أنموذجاً"رسالة دكتوراه طبع ونشر وتوزيع دار الفكر في دمشق عام ١٤٢٤ هـ /٢٠٠٣م ص٢٦٠-٢٦٥. وكذلك رسالة صديقنا د. إبراهيم أصبان التي نال بها درجة الدكتوراه بعنوان "دلالة السياق في القرآن" لم تطبع طبعة عامة بعد.أما السباق: فهو لصيق جداً بالسياق، وكبير الأثر في إدراك المناسبات، وهو ربط الكلمات والآيات والسور بما يسبقها، واعتبارها حلقة في سلسلة مترابطة.

[5] نقلت هذه الكلمة عن الأمام علي بن أبي طالب – رضي الله عنه- قالوا: إنّه قالها عندما وجّه ابن عباس –رضي الله عنهما – لمحاورة الخوارج.ونقلها الشهرستاني في الملل والنحل وغيره عنه، وفي النفس شك!!

[6] قد قمنا بتخريج هذا الحديث من سائر مراجعه المعروفة في الحلقة الثانية من هذه السلسلة في "الجمع بين القرائتين" فلتراجع تفاصيل ذلك هناك

ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الـــذكر الحكـــيم، وهـــو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألـــسنة ولا يـــشبع منـــه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه. هو الذي لم تنته الجن إذ سمعتـــه حتى قالوا: إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد، فآمنا به. من قال به صدق، ومن عمل به أُجرَ، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم". انتهى هذا الحديث الجليل[٧]. ويقول الإمام فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـــ): "...لو أردت أن أكتب في تفسير سورة الفاتحة وقر بعير لفعلت"[٨] وتفسيره المطبوع لسورة الفاتحة مجلد كبير يقع في (خمسين وأربعمائة) صفحة من القطع الكبير. ط التجاريَّة في مصر عام ١٩٣٨م.

إن نظم القرآن الفريد هو الذي جعله كتاباً ميسَّراً للذكر – كلّه – فهو يقرأ بيسر وسهولة،إذ هو في مفرداته يستعمل أقرب الكلمات، وأبلغها في الدلالة علـــى المقـــصود، وأفصحها، فلا تجد في كلماته كلمة واحدة مصابة "بتنافر الحروف" لتباعد مخارجهـــا، أو لثقل اجتماعها في كلمة. بحيث تثقل على اللسان ويصعب نطقها،ولن تجد في جمله وآياته كلمات متنافرة لأيّ سبب من الأسباب. ولن تجد فيه لفظاً مستغلَقاً، ولا لفظاً مستكرَها، أو نابياً أو فاحشاً أو بذيئاً. يقول الإمام الرازي: "...إنّ المحاسن اللّفظيَّة غير مهجـــورة في الكلام الحِكْميّ، والكلام له جسم وهو اللَّفظ، وله روح وهو المعنى. وكما أنّ الإنـــسان الذي نوَّر روحه بالمعرفة ينبغي أن ينوَّر جسمه بالنظافة كـــذلك الكـــلام، ورب كلمـــة حكيمة لا تؤثّر في النفوس لركاكة لفظها"[٩]. ولدقة نظم القرآن سهل حفظـــه، وتيـــسُّر ترتيله، واستطاع الناس تلاوته وتدبُّره وفهمه وتعقُّله وتذكره والتفكّر فيه بيسر وسهولة، وبقطع النظر عن مستوياتهم المعرفيَّة وطاقاتهم الذهنيّة. فإنّ مما اتفقت عليـــه آراء الـــذين تناولوا إعجاز القرآن، أو خصائصه ومزاياه "تأثير القرآن في نفـــوس قارئيـــه وســـامعيه" وقدرتهم على الميز بينه وبين سواه فمن طبيعته النزول على القلب، وتحريـــك الوجـــدان والتأثير في النفوس. فأيّ تغيير في بنائه يضع حاجزاً بين النص المختلق أو المغيَّر والفطـــرة

[7] راجع تفاصيل هامة حول هذا الحديث في "الحلقة الثانية من هذه السلسة في "**الجمع بين القراءتين**"

[8] مقدمة تفسير "**مفاتيح الغيب**"

[9] **التحرير** (١١٢/١) **ونهاية الإيجاز** للإمام الرازي، مصدر سابق.

والقلب والنفس والوجدان. وهذا مالا يدركه المفبركون، أو يغيب عنـــهم، فيقعـــون في حبائل الشيطان، ويتوهمون القدرة على المعارضة والفبركة. .

ولدقة نظم القرآن استحال على الباطل أن يأتيه من بين يديـــه ولا مـــن خلفـــه. واستحال على الخلق أن يأتوا بمثل سورة من سوره.

عصمة القرآن من أي نوع من التحريف:

ولدقَّة نظمه اتَّسم "بالوحدة البنائيَّة"[١٠] في بنائه – كلّه – مع تعدُّد محاوره، وتفنُّنه في تناول مختلف الأغراض التي تحتاج – لو تناولها غـــيره – إلى آلاف المجلـــدات ولـــن تستوعب تلك الأغراض.

فهو تارة يعتمد الأسلوب القصصيَّ. وتارة يوظّف الوقائع التاريخيَّة، وتارة يـــوجز دون أيّ تقصير في تناول المعنى المراد، وأخرى يفصّل دون إطناب، وأحياناً يطلق الجمل، وفي أحيانٍ أخرى يقيِّدها، ويوظّف الإجمال ليفتح العقول ويحملها على التفكُّر والتـــدبُّر. ويستعمل البيان من غير أن يشعر القارئ بأن هناك إجمالاً أو إطلاقاً، أو إيجازاً إلاّ إذا أنعم النظر، وأجال الفكر، وقام بالتلاوة "حق التلاوة".

وأحياناً يعتمد ضرب الأمثال وقد أبدع في تركيبها، وحمل العقول علـــى الـــسعي للوصول إلى مراميها، وما رمزت إليه من غير خلط بينها وبين القصص كما هو الحال في الكتب الدينيَّة الأخرى.

إرهاصات سبقت تأليف "المفبركان الباطل":

منذ عدة عقود بدأت تظهر بعض أمور كأنّها مربَّعات أحرف متقاطعة من الصعب تحويلها إلى كلمات ذات معنى، لعدم وجود ما يدل عليها من أسئلة وغيرها. مـــن تلـــك الأمور: الدعوة إلى توظيف الدين في معالجة مشكلات معاصرة تحتاج إلى تجنيد طاقـــات الشعوب، ووضعها على صعيد واحد، وتحقيق التعاون بينها. وهذا أمر جيد لا إشـــكال فيه، ولا اعتراض على الدعوة إليه من حيث المبدأ. ولكن ......

---

[10] أفردنا "للوحدة البنائيَّة" دراسة مستقلة سوف تنشر ضمن هذه السلسلة.

توظيف الدين أم اتخاذه مرجعيَّة؟:

ولكنّ الفرق كبير بين "توظيف الدين" وبين "الرجوع إليه" أو اعتباره مرجعيَّة يجب الرجوع إليها لمعالجة تلك المشاكل فتوظيفه يعني استدعاءه لأداء وظيفة أو دور يظن أصحاب "القرار السياسي" أن الدين يستطيع أن يؤديه، فيستدعى بقدر ما يؤدي ذلك الدور، ثم يعاد إلى الأرفف العالية ليستقر عليها حتى حين، وذلك عندما تظهر حاجة أخرى. وهذا النوع من الرجوع لا يدل على رجوع حقيقيٍّ إلى الدين، أو عودة صادقة أو كاذبة إليه، ولا يصنَّف في إطار توبة، أو رجوع إلى الحق أو صحوة دينيَّة، أو ما شاكل ذلك. فهو لا يعدو أن يكون إعطاء "الدين" وظيفة مؤقتة تنتهي بانقضاء الحاجة إليها. ولذلك اشترط الإسلام النيَّة لصحة العمل، وبيَّن ضرورة ارتباط الرجوع إلى الدين، أو التديُّن بالإخلاص: " مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ " (الأعراف:٢٩) أي: انّه ليست هناك شائبة تشوب تديُّننا بديننا، فتديُّننا برئ من جميع الشوائب، صافٍ من كل ما يكدره من شرك أو خلط واختلاط. فالمقصود به وجه الله – تعالى – وأيُّة فائدة قد تتحقق بعد ذلك، فهي ليست مقصودة وإن حدثت فهي فضل وفائدة لا غاية، فالمقصود الأساس وجه الله – وحده – وللإخلاص حقيقة وماهيَّة وشروط وأركان لابد من ملاحظتها للتمييز بين توظيف الدين، وبين التديُّن الخالص الصافي الذي لا يراد به إلا وجه الله، ولو أنّ هذا المقياس أو الميزان كان شائعاً متداولاً بين المؤمنين لما خدعوا بنوبات "تديُّن الظالمين"، و لأدركوا الفرق بين من يوظّف الدين لتحقيق مآربه الدنيويَّة ومن يوظّف نفسه لخدمة الدين ابتغاء مرضاة الله. وإخلاصاً لوجهه الكريم.

خطوات تنفيذيّة:

ويبدو أنّ هناك من أراد أن يجعل الرغبة حقيقة وواقعاً، فشكلت لجنة تحضيريَّة، ووجهت الدعوة إلى رجال كثير من الأديان السائدة، و لم تقتصر على ما يعرف "بالأديان الإبراهيميَّة" كما هو الحال في الحوارات التي كثيراً ما تجرى في الولايات المتحدة. وعندي على هذه التسمية "الأديان الإبراهيميَّة" ملاحظة، فهي وإن تبناّها وردّدها كثير من المسلمين فإنّها تسميّة غير دقيقة، فهي تشير إلى البعد القومي في النظر إلى الدين فارتباط "اليهود والنصارى" إن صح بسيدنا إبراهيم – عليه السلام – ليس ارتباطاً دينيّاً. بل هو

ارتباط قوميّ - إن سلم – وذلك لبنوة إسحاق ويعقوب لإبراهيم وكـــذلك إسماعيـــل، وتترُل آل عمران من ذريته عليه السلام، والديانتان خاصّتان في بني إســـرائيل أو ســـلالة إسرائيل فهما "خبز الأولاد" كما نقل عن السيد المسيح "لا يعطى للكلاب". وقوله: "إنّما جئت لإنقاذ الخراف الضالَّة من بني إسرائيل"، وما أوردته أسفار موسى والأناجيل كلّهـــا ذلك يؤكد "انحصار رسالة موسى وعيسى – عليهما السلام – في بني إسرائيل، فموسى – عليه السلام – جاء لتحرير شعب إسرائيل من العبوديَّـــة لفرعـــون. وعيـــسى جـــاء لتحريرهم من الحرفيَّة والماديَّة التي شاعت فيهم، وإعادهم إلى روح الـــشريعة الموســـويَّة ومقاصدها. والتعميم الذي حدث للمسيحيّة – بعد ذلك – إنما جاء بعد اعتناق قستنطين للنصرانيَّة، وتوظيفها لبناء مجد روما والإمبراطوريَّة الرومانية.

لذلك فإنّه لا صلة بين الديانة اليهوديَّة ولا الديانة النصرانيّة وبين إبراهيم إلاّ الصلة القوميَّة فقط لا غير. أما إبراهيم نفسه فإنّه كان **(...** حَنِيفًا مُّـــسْلِمًا وَمَـــا كَـــانَ مِـــنَ الْمُشْرِكِينَ**)** ومثله موسى وهارون وعيسى وداود وسليمان ويحى وغيرهم ممن قص الله في القرآن قصصهم ومن لم يقصص علينا قصصهم. ومن هنا فإنّ إطلاق كلمـــة "الأديـــان الإبراهيمية" على الأديان الثلاثة، ونسبة اليهودية والنصرانيّة إليه إطلاق غير صحيح، بـــل إن يعقوب نفسه: إسرائيل لم يكن يهودياً، إذ أن اليهوديّة نشأت ببدء نزول الوحي على سيدنا موسى. كما بدأت النصرانيّة بترول الوحي على سيدنا عيسى - عليهما السلام – " مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا...."

إن الأديان التي دعيت للمشاركة في ذلك اللقاء شملت الديانات الوثنيَّة الوضعيَّة في الصين والهند واليابان وبقية بلدان "جنوب شرق آسيا" وكثير مـــن المنـــاطق الأفريقيّـــة، والمجاهل والغابات. وقد شارك بعض من يمثّل بعضاً منها في ذلك اللقاء.

أماَّ : اليهوديَّة" فقد دُعي وشارك من رجالها عدد جيِّد من كبار أساتذة الدراسات اليهوديَّة، ومن يحملون لقب "رباى" أو حاخام من العاملين في المؤسّسات الدينيّة اليهوديّة لطائفتي: "اليهود الارثوذكس"، وهم الذين يرون في التقاليد والطقوس المتوارثة لـــشعبهم حقيقة اليهوديّة، والدرع الذي صان وحدة الشعب اليهوديّ ودياناته عبر التاريخ.

و "طائفة اليهود" الذين يسمون أنفسهم "بالإصلاحيين" وتسميهم الطوائف اليهوديّة الأخرى "بالعلمانيّين" هم الذين ينادون بقبول ثقافة العصر وقبول ما تأتي به، والاستعداد للتنازل عن كثير من المواريث الدينيَّة التي قد تضع بين اليهود وبين من يعيشون بينهم من الشعوب حواجز قد تضر بالوجود اليهوديّ.

ثم النصرانيَّة في أمريكا وأوربا وكثير من بقاع الأرض. وإن اختلفت كنائسها، وتضاربت معتقداتها؛ ولكنّها – عندما تواجه الأديان الأخرى- تلاحظ مشتركاتها حتى تبدو كأنّها ديانة واحدة.

ثم يأتي الإسلام فهو ثالث دين في العالم من الناحية العدديَّة، تليه اليهوديَّة من حيث العدد، لا من حيث النفوذ.

وهناك ديانات أخرى قد دعيت وشاركت، وهي خليط من بقايا ديانات موروثة، وبعض الديانات الوضعيَّة.

منظمّة الأديان المتحدة:

ويبدو أنّ هناك مؤسسات دينيّة – من "أولئك الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا " كانت تسعى لتحقيق أهداف معيّنة لدى القائمين عليها، فقد طرحت فكرة إقامة منظّمة "للأديان المتحدة" ترتبط بمنظمة الأمم المتحدة. وحين سمعت الخبر للمرة الأولى لم أدرك أن الأمر جد؛ فالفكرة لا تبدو ممكنة أو قابلة للتنفيذ، في ظل الأوضاع القائمة في عالمنا – اليوم – وهي مثيرة للعجب والتساؤل: يا ترى كيف ستدار هذه المنظَّمة؟ وكيف ستكون قضيَّة التمثيل فيها؟ وما هي الأهداف التي ستتبنّاها؟ وما هي السياسات التي ستتَّبعها، وما هي الآليّات التي ستوظّفها وتستخدمها... هناك عشرات الأسئلة تواردت على ذهني. ثم تناسيت الأمر، أو أنسيته وحملته على أنّها قد تكون فكرة أو خاطرة أطلقها بعض الحالمين. أو المجانين أو المهلوسين!! في بادئ الأمر.

ثم تلقيت دعوة من "لجنة تحضيريَّة" أشارت في دعوتها إلى أنّها ترغب في جمع نخبة من "رجال دين" يمثّلون مختلف الأديان الشائعة بين البشر اليوم للتحاور حول أفضل السبل التي يمكن لرجال الدين أن يساعدوا بها في احتواء ومعالجة مشكلات العالم المعاصر!!. وكان مكان عقد الاجتماع المقرّر أحد أهم " مراكز الدراسات النصرانيَّة"، يقع ذلك

المركز – الدير- قريباً من نيويورك، وعلى مرتفع من المرتفعات الجميلة القريبة منها. والمركز يقع في مبنى قديم لكنّه فخم جداً وواسع جداً، ففيه جميع المرافق من مكتبة ومطاعم ومبان مخصَّصة لإقامة الرهبان، وأفواج التنصير التي تنطلق منه إلى كل أنحاء المعمورة. وفيه اكتفاء ذاتيٌّ يغني طلابه وأساتذته ورهبانه، وأفواج التنصير التي تنطلق منه وتعود إليه. عن الاتصال بالعالم الخارجيّ إلا عندما يريدون ذلك.

وقد أسكنوا المشاركين القادمين من خارج المدينة في غرف معدة لأفواج التنصير. حيث إنّ تلك الأفواج تعود إلى هذا "المركز samenary" بعد أن تقضي فترة محدّدة في المواقع التي أرسلت إليها، ثُم تعود بتقاريرها ودراساتها لتزود بها المركز، وتتلقى في الوقت نفسه من أساتذة ورهبان المركز التوجيهات الجديدة، والمحاضرات التي تساعدهم في تجديد معلوماتهم، وإنماء أساليب عملهم، ليعودوا لممارسة مهامِّهم التنصيريَّة من جديد. ويقضي الفوج، العائد شهراً كاملاً في عمل دؤوب لتبادل المعلومات، والتزوُّد بالخبرات الجديدة، ثم يعود ليأتي فوج آخر وهكذا، فهو خليَّة نحل لا تتوقف عن العمل ولا تفتر. وكم تحسَّرت وأنا أشاهد ذلك – كلّه – على مؤسَّسات الدعوة ومنظّمات الدعاة في بعض بلادنا المسلمة التي تمارس عملها – إن أتيح لها أن تمارس شيئاً – بعشوائيَّة وسذاجة لا تنسجم وأبسط القواعد العلميَّة في هذا المجال – الذي أصبح مجالاً من أخطر مجالات المعرفة، له فنونه وعلومه، والعلوم والفنون التي ترفده بكل جديد لتجعل من الداعية عنصراً فاعلاً ومؤثّراً وناجحاً في عمله. فيخضع لتدريبات شاقة، واختبارات دقيقة ليس هذا مجال تفصيلها.

ومع كل ما لدي من مخاوف وتحفظات قررت المشاركة، وحين بدأ لقاء "القيادات الدينيَّة" المدعوة أعلن أنّ عدد الأديان الممثلة في هذا اللقاء أربعون ديناً لكل منها أتباع في الولايات المتحدة واستغربت ذلك، ولكن سرعان مازال الاستغراب حين وزعت أوراق تقدم بعض التفاصيل: فقد عدوا "البهائيّين" ديانة مستقلة و "القاديانيّين" كذلك ومثلها بعض الأديان الهنديَّة التي قد لا يتجاوز عدد أتباعها سكان قرية هنديَّة متوسطة. وألقيت كلمات.

صلوات مشتركة:

ثم أعلنت لجنة المؤتمر عن أن الجلسات ستتخللها صلوات، فممثّل كل دين عليه أن يقدم "الصلاة" الأساسيَّة المفروضة في دينه، ويشاركه الآخرون – بخشوع – في أدائها أو بالصمت والتأمّل، فذلك سوف يساعد على تحقيق الاحترام المتبادل !!! وما علمت أن الإصابة بالإسهال نعمة بقدر ما علمت ذلك في تلك الأيام، فقد كنت أجد في الخروج من القاعة إلى الحّمامات بسبب ذلك وسيلة حماية ووقاية من الاستماع إلى "صلوات المكاء والتصدية" فضلاً عن المشاركة فيها والعياذ بالله. وأعلنت – المسئولين – أنَّني مريض ربما من الطعام، أو الإصابة بالبرد، لئلا يفسَّر خروجي المتكرّر بأي تفسير آخر. ولّما جاء دوري لأداء الصلاة المفروضة علينا - نحن المسلمين أمام هذا الجمع – أبديت اعتراضاً على أنهم يطلبون مني الصلاة في غير وقتها المحدّد عندنا، وهذا أمر غير مقبول، ولكنّني على استعداد إن شاؤا أن أصلي الصبح في أول وقتها غداً على أن تعد قاعة مناسبة، ويحضر المؤتمرون جميعاً ليروا ويسمعوا تلاوتي وصلاتي وسوف أشرح لهم ذلك وأترجم لهم ما أتلوه من القرآن إن شاء الله. فقال أكثرهم: إنّهم سوف يكونون نياماً في هذا الوقت، ولن يسهل عليهم الحضور. وهمهم بعضهم بأنّه قد شاهد من قبل صلوات إسلاميَّة، فأخبرتهم بأنّني سأستبدل إذن ذلك واستخدم الوقت المخصّص لي الآن بقراءة آيات من القرآن الكريم مع ترجمتها وقد كان.

لكنّ ما خرجت به من ذلك اللّقاء أن الأمر جدٌّ، وأنّ القوة الموجِّهة لعالمنا المعاصر تعمل على توظيف الدين لخدمة أغراضها السياسيَّة بكل ما تملك من وسائل. وأنّ المستهدف الأول من كل تلك الجهود المحمومة، والضحيَّة الأولى لها سيكون الإسلام والمسلمين؟!

درس من الأمم المتحدة:

إنّ "الأمم المتحدة" منذ إنشائها شكلت سلاحاً سياسيّاً هامّاً بأيدي الدول الكبرى التي تهيمن على مجلس الأمن وعلى كثير من المنظّمات الفرعيَّة والأساسيَّة. والبلدان المسلمة يرفع بوجهها عل الدوام سلاح "الشرعيَّة الدوليَّة" وهو مفهوم وهميٌّ خاطئ يعبّر عن وهم

كبير لم يعد يخفى على أحد. ومثله سلاح "الإجماع الدولي" والخـروج علـى الإجمـاع الأمميّ....و. و...الخ.

واستولى علي قلق وخوف شديدان: إنّ هذه المنظمة "منظمة الأديان المتحدة" لـو قامت فسوف تستخدم هذه الأسلحة أو مثيلاً لها في مواجهة الإسلام عقيـدة وشـريعة ونظم حياة، فما أسهل وأيسر أن تصدر قراراً ينال إجماع ممثلي تلك الأديان!! بمنع الجهاد مثلاً نظرياً وعمليّاً أو توصية بتحريمه دولياً، والمناداة بوجوب إتلاف وإعدام سائر الكتب والدراسات، بل والآيات والأحاديث النبويَّة المتعلقة به. وبذلك يصبح مجرد الحديث عـن الجهاد أو تدريسه جرماً ممنوعاً – كما هو الحال اليوم - فضلاً عن ممارسة أيّ نوع مـن أنواعه إلاّجهاد النفس؛ لأن مجرد الإبقاء على المفهوم يعدُّ خروجاً " عن "الشرعيَّة الدينيَّة الدوليَّة" و"الإجماع الدينيّ الأممي" و.... و....الخ.

وقل مثل ذلك في الزكاة، وسائر أركان الدين والشريعة، والعقيدة. وآنذاك لا يعود القرآن المجيد مصدراً للعقيدة والشريعة، ولا السنّة النبويَّة المشرّفة مصدراً مبيِّناً لأنّ التشريع الدينيّ العالميّ ستكون مرجعيَّته تلك الهيئة الدوليَّة، فهي التي تقرر ما هو من الدين، وما هو خارج عنه، وبمقتضى ميثاقها سوف يتم تصنيف الأديان ومعتنقيها. وسائر ما يتعلق بهـم وبها. وصدمت صدمة كادت تذهب بعقلي، وحدّثت بعض قادة المؤسّسات الدينيَّـة في أمريكا وفي عالمنا الإسلامي في هذا الأمر وكيف سيكون موقفهم لو وجدوا أنفـسهم في مواجهة أمر كهذا؟ ومن المؤسف أنَّ معظمهم كان يبدي عـدم اكتـراث، أو يـستبعد حدوث ذلك.

وبعضهم كان يردّد: إنّ الإسلام أقوى من كل تلك المحاولات، وإنّها لـن تنـال منه...ولاشك أن الإسلام – في ذاته – لن يزول بإذن الله ، ولن تنطفـئ أنـواره. وأن القرآن محفوظ بحفظ الله – تعالى – فلن ينالوا منه نيلاً، لكن سـنة الله – تعـالى – أن يقذف بالحق على الباطل فيزهقه. ومن سننه وقوانينه التي لا تتبدل "سنّة التدافع": ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْـمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٤٠)

وهناك "سنّة الاستبدال" **(... وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)** (محمد:٣٨) فالمسلمون إن لم يحملوا الحق الذي كلّفوا بحمله، وإعلاء شأنه، و لم ينضموا إلى صفوف حملته الذين يقذف الله بهم أهل الباطل فيزهقه. فقد يعلو الباطل ولو إلى حين. وقد تقع عليهم "سنة الاستبدال" لأنّهم تخلوا عن مهمتهم، فلابد من استبدالهم.

هذا الذي استبعده الكثيرون من قيادات المسلمين قبل سنوات قلائل صرنا نشاهده اليوم، ونلمس آثاره. منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر وسائر بلاد المسلمين تتعرّض لعمليّة إبادة ثقافيَّة، وتدمير هُوِيَّة شاملين.

وبعد الحادي عشر من سبتمبر قررت "المنظمة الاقتصادية العالميّة" في ("دافوس") المعروفة. أن يكون أول اجتماع لها في مدينة نيويورك تكريماً للمدينة الجريحة وتعزية لها.

دعيت – أيضاً – إلى ذلك اللقاء الذي عقدته "المؤسسة" في نيويورك؛ وعقد لقاء مماثل أداره هذه المرة "أسقف كانتربري" السابق. ولقيت فيه بعض من كانوا قد شاركوا في اللقاء الأول. تم توزيع الملتقين على لجان وموائد، وطرحت عليهم أسئلة طلب منهم بيان مواقف أديانهم منها. أو موقفهم الدينيّ منها، ومع اختلاف المضمون بين الّلقائين، لكن الّلقائين كانا يصبَّان في اتجاه واحد، وهو جعل فكرة التنسيق بين الأديان مرحليّاً ممكنة، تمهيداً للعمل على إقامة "منظمة تعمل على تحقيق فكرة الأديان المتحدة" وجعلها مقبولة لدى الجميع!! وهل المسلمون اليوم يملكون شيئاً إلاّ أن يقبلوا.

ثم علمت أن مكتباً قد فتح في " الأمم المتحدة" للعمل والتنسيق معها لإيجاد "المنظمة الجديدة" ولو بعد حين-: فالأمر – إذاً - قد خرج من طور الفكرة، ومحاولات تهيئة الأذهان لها إلى طور التنفيذ والتحقيق... وآنذاك سوف تنتهي المرجعيَّات التي تتنافس في بلاد المسلمين، على ألقاب ما أنزل الله بها من سلطان، وكراسٍ لا قوائم لها. وسوف تنهار الأحلام الطائفيَّة مذهبيَّة كانت أم سياسيَّة؛ لأنَّ القوم يستهدفون "الإسلام والمسلمين معاً" لا فرق عندهم بين سنيٍّ أو شيعيٍّ إماميّ أو زيديّ أو إباضيّ. ولا فرق عندهم بين صوفيّ أو سلفيّ، أو مذهبيّ أو لا مذهبيّ. ولا بين عربيّ أو كرديّ أو تركمانيّ أو فارسيّ أو هنديّ. فهؤلاء جميعاً يمثّلون منابع "الإرهاب" أو أيَّة صفة أخرى يبتكرونها.

"المفبركان الباطل"

فهل "المفبركان الباطل" حلقة من حلقات هذه السلسلة؟ وهل يجب علينا الوقـــوف عند هذه الظاهرة، والحذر منها؟ وهل أراد الذين شاركوا في صناعته وفبركته تقديمه بـــين يدي المنظّمة المقترحة لتتخذ منه "فرقاناً موحداً" لها، ولتجعل منه مرجعيَّة دينيَّـــة واحـــدة ملزمة للجميع؟! كل ذلك محتمل!!

إذ لم يعد – هناك – شيء مستبعد في ظل قيادة عالم اليوم فكل ما كان بـــالأمس خيالاً أو أغرب من الخيال صار في عالم اليوم واقعاً، أو جزءاً من الواقع !!

لقد تعرض القرآن المجيد منذ نزول"اقرأ" على رسول الله – صلى الله عليـــه وآلـــه وسلّم – إلى كل ما عرفته البشريَّة من وسائل اللغو والتشويش والدس والافتراء والكذب والتكذيب، ومحاولات المحاكاة، والتقليد، والتحريف والمجادلة في كل شأن مـــن شـــئونه، وهو صامد يتحدَّى الإنس والجن ويثبت عجزهم واستسلامهم، وفـــشلهم في الوقـــوف أمامه، والاستجابة لتحديه.

وليم جلادستون والقرآن:

ولم تتوقف المحاولات حتى يومنا هذا. والذاكرة التاريخية تعود بنا إلى عهد "ولـــيم جلادستون" رئيس وزراء بريطانيا الذي لعب أدواراً خطيرة في السياسات الاســـتعمارية البريطانيّة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ففي عهده جرى احتلال مصر. وهـــو الذي فك وحدة مصر والسودان. لقد رفع هذا الحاقد مرة بيده الملطخة بدماء المـــسلمين مصحفاً في مجلس العموم، وهو يخطب في أعضائه، وقال: "لن يكون لنا في الشرق مستقبل ما دام هذا القرآن يتلى، ثم أشار ناحية مكة وقال: " وكعبة تزار" فكانت دعوة صـــريحة للغرب المعاصر بضرورة استئصال القرآن، وتدمير الكعبة". والذي يعرف عن الغرب شيئاً يستطيع أن يدرك أن كلمات مثل هؤلاء القادة تحفر لنفسها مساكن في العقل والـــضمير الغربيّ، بحيث تظهر عند الحاجة والاستدعاء، ويعاد توظيفها، وتنفيذها بنوع غريب مـــن "الجبريَّة".

المفاهيم الخاطئة:

لقد تعرض الإسلام منذ ما يزيد عن قرنين من الزمان إلى عمليَّات تشويه، أوجدت مجموعة كبيرة من المفاهيم الخاطئة في عقول أبنائه وفي عقول غيرهم، حيث شاعت النظرة إلى الإسلام على أنّه خصم للتجديد، ونقيض للتحديث. وأنّ القرآن الكريم هو الذي أوجد هذه المواقف لدى المسلمين.

كما انتشر مفهوم مفاده أن لا فرصة للمسلمين لدخول العصر، واللّحاق بركب المتقدمين إذا لم يتخل المسلمون عن الإسلام، ويبعدوا القرآن عن مجالات التأثير في حياهم. وهناك مفهوم آخر قد شاع وجرى تداوله في عالم اليوم هو إيمان المغفلين من المسلمين " بعلمانيَّة الدول الغربيَّة" وأنّ الغرب قد بنى تقدمه على " الفصل بين الدين والدولة"، واستقر في أذهان النخبة من أبناء المسلمين منذ القرنين الماضيين أنّ الدولة "ظاهرة مدنيَّة" يجب أن يكون لها استقلال مباشر عن ما أسموه "بالظاهرة الدينيّة". وقد فهم أبناء المسلمين هذا بهذا الشكل الحاد، و لم يلتفتوا إلى أن الدولة في الغرب لم تضع الدولة في مواجهة الدين، بل قامت بتنظيم العلاقة بين الاثنين بحيث يجعل ذلك التنظيم بينهما نوعاً من التعاضد والتماسك في تحقيق أهداف الأمَّة، أما المقلّدون من أبناء أمتنا وجلدتنا، فقد فهموا أن المطلوب – هو التخلي التام عن الدين ومحاصرة القرآن، كما فعل "أتاتورك" وكثير من حكام المسلمين بعد ذلك بأساليب متنوعة.

وأمام ذلك أصبح للقرآن أعداء من بين صفوف أبنائه ففقدت الأمَّة تماسكها، وبذلك تحقق "لجلادستون" ما تمنّى.

تغييب مفهوم الأمة:

إنّ مفهوم "الأمَّة" لا يمكن له أن يعيش بعيداً عن القرآن، وعن لغة القرآن، وحاكميَّة القرآن، وشريعة القرآن، وقيم القرآن، والسياسات الشرعيَّة للقرآن. والإرادة الإسلاميَّة التي يوجدها القرآن، والفاعليَّة التي يحققها القرآن!! والشرعيَّة التي يمنحها القرآن للحاكمين؛ وأنَّى لحكومات المسلمين أن تكسب شعوبها وتتضامن مع مواطنيها بدون رابطة القرآن؟!

إنّ العلاقة التي بناها القرآن بين الحاكم والمحكوم – هي علاقة الحاكم بالأمَّة المسلمة: علاقته بالناس وبالجماهير، لا بالأرض وحدها، وتلك هي العلاقة التي يهدي إليها القرآن.

وهي علاقة لا تتأثر بتعدد النظم، ولا بأشكالها؛ فلا تتحدد الأمَّة بأقاليم، ولا بحدود، بل تتحدد بالالتزام بالقرآن والتكلّم بلغة القرآن، وتقوم على قيم القرآن العليا: التوحيد والتزكية والعمران.

فإن أنا أدركني الخوف اليوم على القرآن فليس مرد هذا الخوف أنّني لا أدرك أن للقرآن منزّلاً يحميه، بل لأن أمَّة القرآن لم تعد أمَّة للقرآن، وبذلك فإن القرآن لن يحميها وقد تخلت عنه، قال تعالى: " مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا..." وحين ندرس أحوال المسلمين ندرك أن الذين حمّلوا القرآن ثم لم يحملوه إلا "بالطريقة الحماريَّة" – أي : حملوه على ظهورهم لا في قلوبهم وعقولهم ونفوسهم لن يكون مصيرهم أحسن من مصائر أولئك الذين حمّلوا التوراة، بل سوف يكون أسوأ بكثير!!

إنّهم يعرفون أهميّة القرآن وفاعليته:

إنّهم يعرفون خطورة هذا القرآن أكثر مما يعرفها المنتسبون إلى الإسلام. إنّهم يعرفون أنّ هذا القرآن قد بنى أمَّة من قوم لم يتخيَّل أحد أنهم سوف يكوِّنون أمَّة. وبنى على أيديهم حضارة ما تزال غرَّة في جبين تاريخ الحضارات. وأقام على الأرض عمراناً ما شهدته الأرض قبل القرآن ولن تشهده بعده. كل ذلك يعرفونه، و تجهله غالبيَّة المسلمين، لذلك فإنّهم لن يتوقفوا عن محاربة القرآن. والقوم ذو نفس طويل؛ ألم يقل الجنرال اللّنبى في أوائل القرن الماضي: "الآن انتهت الحروب الصليبيَّة"!!

أنا لست خائفاً على القرآن مهما طالت معركتهم ضده، فللقرآن متكلّم به، ومنزّل له يحميه ويحفظه. لكنّني خائف على المسلمين، وقد سقطت سائر دروعهم وهم يواجهون أقدارهم بصدور عارية، ولا يلتفتون إلاّ أنّهم قد صاروا أعداءً للّغتهم العربيَّة، وخصوماً لتاريخهم، وأعداءً لآبائهم وأجدادهم، وعشَّاقاً لأعدائهم وجلاّديهم، بحيث ظهر فيهم سلمان رشدي وآياته الشيطانية، ونسرين التي وصفت القرآن المجيد "بالعار" وخليل عبد

الكريم الذي لم يشتم أعدى أعداء الإسلام الإسلام والنبيّ والقرآن أقــذع مــن شــتمه والقائمة طويلة، فكيف نتصدى لأعداء القرآن، وكيف نحمل رايتــه، وننقــذ البــشريَّة وأنفسنا به، هذا ما تحاوله هذه السلسلة من "دراسات قرآنيَّة" سائلين منزّل القرآن العون، والتوفيق والتسديد. إنه سميع مجيب.

أزمة الإنسانية
ودور القرآن الكريم في الخلاص منها

تمهيد

لقد أنزل الله – تعالى– القرآن المجيد على عبده ورسوله محمد – صلى الله عليه وآله وسلم – ﴿ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِين﴾ (النحل:٨٩) ومنذ بدء نزول القرآن ورسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – يبين للناس الذي اختلفوا فيه بهذا الكتاب، ويجاهدهم به جهاداً كبيراً، ليحملهم على التفكير والتذكر والتلاوة والتدبُّر والتعقُّل والترتيل ليعلم رافضوه والكافرون به أنَّهم كانوا كاذبين في تصوراتهم وأفكارهم، ورؤاهم ومعتقداتهم، وسلوكيَّاتهم وتصرّفاتهم وعلاقاتهم وسائر شأنهم، وليهتدي المؤمنون إلى التي هي أقوم في ذلك – كلّه – وفي غيره. فهو شفاءُ لما في الصدور وهدى ورحمة، وهو "منهج" يهدي به الله من اتَّبع رضوانه سبل السلام، وهو نور يخرج به الله من الظلمات إلى النور، وهو تزكية وتذكرة وبشرى ونذارة، وهو حبل الله المتين وصراطه المستقيم[11].

الأمة واستجلاء معاني القرآن:

منذ أن لحق رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – بالرفيق الأعلى والأمة المسلمة التي صُنعت بالقرآن على عين الله – تعالى- وبجهاد رسوله الأمين، والأسوة الحسنة التي قدّمها والسنن التي أرسى دعائمها: والأمة تسعى جاهدة للإلمام بمعاني القرآن، وإدراك مقاصده، واستجلاء مراميه وغاياته، والوصول إلى برد اليقين في فهمه ومعرفة تفسيره وتأويله. فأنتجت في سبيل ذلك علوم اللُّغة العربيّة بكل فروعها، وقعّدت قواعدها، ووضعت نحوها وصرفها، وأبرزت خصائصها، واستنبطت بيانها وبديعها ونثرها وأحرفها

[11] خاصة في المجالات التي عرفت بالعلوم النقلية أو الإسلامية أو معارف الوحي أو العلوم الشرعية، وكذلك المعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية.راجع بحثنا في هذه السلسلة الخاص بأسماء القرآن وصفاته من "دراسات قرآنية". إن هذه الأسماء والصفات التي سمّى الله – تعالى –بها القرآن أو وصفه بها لا ينبغي أن تؤخذ على أنّها مناقب أوصاف هدفها بيان الفضيلة، بل على أنّها محدّدات منهاجية منتجة لا بد من بذل العناية والجهد في تحليلها وفهمها

وألسنة قبائلها، والمؤتلف والمختلف فيها لتوظيف ذلك – كلّه – في استجلاء معاني ذلك القرآن، والكشف عن ذلك البيان، والفقه فيه، ومعرفة أساليبه، ومحاولة العروج إلى عليائه.

كما جُمِعَتْ سنن رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – وآثار الصحابة وفقههم وتفسيراتهم وتأويلاتهم، وفتاوى قرائهم لبلوغ تلك الغايات، والعروج إلى سماء تلك الآيات. فكانت حصيلة تلك الجهود أن بلغت تراكمات ذلك حد بلوغ مرحلة تأسيس وتدوين ما عرف بـ"العلوم النقلية".

العلوم النقلية:

لقد تتابعت الجهود في مختلف المجالات، وتنوعت الاجتهادات، وكثرت وتعدّدت المقاربات حتى تراكمت لدى الأمة مجموعة هامة وكبيرة ومتنوعة من المعارف تحولت خلال القرنين الهجريين الأول والثاني إلى علوم وفنون ومعارف وصناعة مدّونة[١٢]. وبقيت مدارس علماء الأمة تضيف عليها، وتحذف منها، وتطور فيها، وتتوسع في قضاياها حتى بلغت حداً من تكامل في مشارف نهايات القرن الرابع الهجري: وهنا استوت على سوقها وعُرفت مبادئها، واستقرت وسائلها، وتمايزت مقاصدها عن وسائلها، واستقل كل منها بشيء من ذلك، فكانت أحد عشر علماً، ما بين علوم وسائلية، مثل علوم اللغة والمنطق، وعلوم مقاصديَّة مثل علوم التفسير والحديث، والأصول والفقه والتوحيد، وذلك بقطع النظر عن تفرعاتها وشعبها الداخليَّة، وأنواع المعارف التي أخذ بعضها في حجز بعض حتى تجاوز عددها في القرن السادس وما تلاه مائة علم وفن[١٣].

فهل أوصلت هذه العلوم والفنون والمعارف الأمَّة إلى غاياتها في القرآن؟ وبغيتها منه؟

الجواب: أن كل تلك الجهود قد حومّت بالأمة حول بعض شواطئ ذلك الكتاب المجيد، الكريم، المكنون، وقدمت شيئاً من الفوائد، ولكنها قد قصرت عن الإلمام "بمطلق الكتاب" إذ هيمنت نسبيَّة البشر على ذلك "المطلق" وقيدَّته إلى مدركاتها الظرفيّة ومحدّداتها

---

12 يذكر الذهبي في تاريخ الإسلام، ثم السيوطي في تاريخ الخلفاء أن هذه المعارف قد بدأ تدوينها رسمياً عام ١٤٣ هـ.

13 على ما في موسوعة الإمام الرازي المتوفي عام ٦٠ هـ، ويراجع في ذلك بحثنا الذي لم ينشر عن فخر الدين الرازي: حياته، شيوخه، ومؤلفاته. وكذلك يراجع **تصنيف العلوم** للكندي، والفارابي، وابن حزم، وابن الساعي الأكفاني، وطاش كبرى زادة، وكذلك كتب المتأخرين أمثال **أبجد العلوم** ونحوها، فتلك الكتب والدراسات مفيدة في معرفة ذلك؛ وإحصاء تلك العلوم.

الزمانيَّة والمكانيَّة، وسقوفها المعرفيَّة، وقاسته على الكتب التي سبقته من بعض الوجـــوه، فأدى ذلك كلُّه إلى بروز تفسيرات متضاربة، وتأويلات متناقضة، وفقه مختلف، وكـــلام متعسف، وأصول تمازجت بالفروع، وتحولت الوسائل اللغوية إلى مقاصد، بحيث صارت تتحكم أحياناً في لغة القرآن، وصارت تلك المعارف مقصودة لذاتها، أو مرجعيات بديلـــة يستغنى بالرجوع إليها عن الرجوع إلى القرآن إلا على سبيل الاستشهاد. واتخذت السنن النبوي- بدورها – معضدات وشواهد ساندات لما سبره السابرون[١٤]، وأصله المؤصـــلون لتلك المعارف والعلوم.

إطلاقية القرآن والمعارف النقليَّة:

وإذ حجبت بعض تلك المعارف أنوار "إطلاق القرآن" وفككت وحدتـــه البنائيّـــة تفككت معها "وحدة الأمة" وتفكك ائتلافها، وتناثر جمعها، وانحطت إلى مستوى التمزُّق الطائفي، والتشتُّت المذهبيّ. كما أن بعض هذه المعارف قد تجاوزت مع بُعد "الإطـــلاق" بُعد "العالميَّة في الخطاب القرآنيّ" وفسَّرته كما لو كان خطاباً قوميّاً منحصراً في قـــوم أو محيط جغرافيٍّ محدَّد أو فترة تاريخيَّة معيَّنة مما فتح أبواباً كثيرة لطعن الطـــاعنين، وتحريـــف الغالين، وتأويلات الجاهلين، وانتحالات المبطلين[١٥].

ومع تجاوز "إطلاق الكتاب" و "عالميّة الخطاب القرآني" اختفـــى بُعـــد "حاكميـــة الكتاب" وكما انزوت خصائص الشريعة التي أكدتها الآيات (١٥٦-١٥٨) من ســـورة الأعراف. لم يبرز لتلك المحدّدات المنهاجية الأثر الذي كان ينبغـــي أن يظهـــر في تلـــك المعارف، وينعكس على تلك العلوم والفنون، ويسدِّد مسيرتها. وبذلك اتخذ تراثنا النقلـــيُّ كثيراً من السمات السلبيَّة، أو القابلة للنقد الَّتي لا تخفى على المختصين بتلـــك المعـــارف والفنون.

---

14 يراجع **البرهان** لإمام الحرمين الجويني، الفقرة ١٥٣٥، وقارن بـ ١٥٤٨. و**تاريخ التشريع** للخضري، وكتاب عياضة السلمي **استدلال الأصوليين بالكتاب والسنة**، حيث أوضح كيف كان جمهرة الأصوليين يتخذون من أدلة الكتاب والسنة في الأعم الأغلب معضدات لما يتوصلون إليه. وكذلك **المحصول** بتحقيقنا في مباحث التقليد. أما تحكيم قواعد اللغة الوضعيَّة في لسان القرآن المعجز فسنتناوله إن شاء الله في الحلقة الخاصَّة "بعربيَّة القرآن" من هذه السلسلة: باعتبارها حلقة من حلقات هذه السلسة.

15 يراجع كتاب القاضي الباقلاني المخطوط **الانتصار لنقل القرآن** الذي يكاد يستقرىء فيه شبهات أهل زمانه في هذا المجال، وكذلك مختصره المطبوع للصيرفي المسمى **بالنكت** ولمعرفة الآثار الخطيرة لتجاهل وتجاوز " المحددات المنهاجية للقرآن وعدم الوعي بها تراجع دراستنا **أبعاد غائبة عن فكر وممارسات الحركات الإسلاميّة** القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م. ودراستنا ضمن هذه السلسلة: **الخطاب العالمي في القرآن** قيد الإعداد. ودراسة أخينا مصطفى جابر **عالميَّة الخطاب القرآنيّ: دراسة تحليلية في السور المسبّحات الخمس** –رسالة ماجستير لم تطبع طبعة عامّة بعد.

سبيل الخلاص هدف عالميٌّ:

ولتتجاوز "الأمة القطب" ثم العالم من بعدها الأزمات الفكريَّة والثقافيَّة، والصراعات والتناقضات الطائفيَّة والأمميَّة التي تأخذ بخناق البشريَّة اليوم، لابد من ابتغاء القرآن المجيد، والعروج إلى عليائه من جديد، والتعامل معه من ذات المنطلقات التي كان رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – يتعامل معه بها باعتباره كلام الله – تبارك وتعالى – المطلق والمصدِّق والمهيمن والحاكم على كل ما عداه، وباعتباره الخطاب العالميَّ النازل بالشريعة السمحاء التي نفت ورفعت عن الناس الحرج، وأحلَّت لهم الطيِّبات، وحرَّمت عليه الخبائث، ووضعت عنهم الإصر والأغلال التي كانت عليهم؛ فكانت رحمة للعالمين، وتخفيفاً عن الناس أجمعين إلى يوم الدين. والقرآن مهيمن على ما سبق بخاتميَّته، ومهيمن على ما لحق بإطلاقه وحاكميَّته، ومصدِّق على كل ما عداه بشموله وإحاطته.

إن سبيل الخلاص الوحيد يكمن في هذه العودة الصادقة المخلصة التامة إلى القرآن المكنون، فبها يمكن أن تبدأ مسيرتنا الكبرى، وانطلاقتنا الشاملة للخروج مما نحن فيه، ولتأسيس "البديل الحضاريّ الإسلاميّ العالميّ" القائم على الهدى والحق والقيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران. إن شاء الله تعالى. وبدون تلك الرجعة الصادقة المخلصة إلى رحاب القرآن فإنَّه لا أمل للبشريَّة – كلها – ولا مُخرِج لها مما تتردى فيه، ولن تزيد حالتها الفوضويَّة إلا سوءاً وتدهوراً، وآنذاك "لن يبك ميت، ولن يفرح بمولود".

نقطة البداية في فهم الحالة الراهنة:

إن نقطة البداية أو الانطلاق نحو الخروج من أزماتنا و بناء "البديل الحضاريّ الإسلاميّ العالميّ" تكمن في محاولة فهم الحالة الراهنة لأمتنا وللعالم – كلّه – من حولها، فهذا العالم – بكل ما فيه - صار يؤثّر في كل شيء في أمتنا؛ فيؤثّر في فكرها وأنماط حياتها، وسياساتها واقتصادها، بل وطرائق تعليمها وتدريبها وتربيتها، بحيث صار يختار لها ما تقرأ وما تدرس وما تسمع وما ترى، ولسان حاله يقول ما حكى القرآن من قول فرعون : ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر:٢٩).

هنا نحتاج إلى دراسة "المآسي الإنسانيَّة الراهنة" و "الأزمة العالميَّة الحاليَّة" التي تزداد كثافة وظلاماً عبر الأيام بمنظور آخر، إذ تشخصّها وتفسرّها الدراسات اللاهوتيّة اليهوديّة

والنصرانيّة، بل وبعض التوجهات الإسلاميّة مضافاً إليها البوذية والكنفوشيوسيَّة والـــشنتو وما إليها بأنها مآس وأزمات سببها "الانحراف عن الدين"[١٦]؛ وهذا مسلَّم مـــن حيـــث

---

[16] استمع العالم إلى الكثير من التحليلات حول "الزلزال الذي حدث في المحيط الهادي" وأطلق عليه "تسونامي" وضرب مساحات كبيرة من شواطئ جنوب شرق آسيا. وذهب ضحيَّة ما سبَّبه من أضرار مئات الألوف من البشر والحيوان فضلاً عن بلايين من الدولارات قدرت بها أضرار الممتلكات والأموال والزروع وما إليها. وكان أكثر المتضررّين بذلك أبناء جزر إندونيسية مسلمة وجاءت التحليلات اللاهوتيَّة التالية في التعليق عل أسباب ما حدث: فهناك تحليلات كنسيَّة استندت إلى الأناجيل، وقالت بأن السيد المسيح "قد تنبأ بحروب واضطرابات في العالم. وزلازل شديدة ومجاعات وأوبئة..." وأنَّه قال – وهو يهيئ أذهان تلامذته لمجيئه الثاني: "...وستظهر علامات في الشمس والقمر والنجوم. وتكون على الأرض ضيقة على الأمم الواقعة في حيرة، لأن البحر والأمواج تعج وتجيش ويغمى على الناس من الرعب، ومن توقُّع ما سوف يجتاح المسكونة؛ إذ تتزعزع قوات السماوات... عندئذ يرون ابن الإنسان آتياً في السحاب" انجيل لوقا تحت عنوان "نهاية العالم ومجئ المسيح ثانية"(ص ٢٥٨و٢٥٩) فإذاً: كل هذا الذي يحدث إنما هو تمهيد للمجئ الثاني للسيد المسيح – وبناءاً على ذلك تتوقع قيادات دينيَّة في أمريكا وغيرها، أن السيد المسيح قادم إلى العالم ثانية عام (٢٠٠٧) بالذات. وكل هذه الفوضى هي بعض المقدّمات الضروريّة لمجيئه عليه السلام. فنهاية الأرض ونهاية التاريخ لن تحدث إلا والنصرانيَّة بقيادة المسيح منتصرة وسائدة في الأرض – كلّها- . فالمسلمون لا حل أمامهم – والحال هذه- إلا التنصر أو الموت، واليهود الذين حاولوا صلبه، وأغروا به هذه المرة سيكفرون عن خطاياهم وينضمون إلى السيد المسيح ابن الرب – ابن الإنسان!! والآخرون سوف يدخلون النصرانيَّة، وبعد ذلك تكون الخاتمة: نهاية التاريخ وسيادة النصرانيَّة – الأرض كلّها.

وهناك تحليلات يهوديّة لا تختلف كثيراً إلا في بعض التفاصيل حيث إن لديهم "مشايا" أو "مشيح" ذا صفات خاصة يظهر ليحكم العالم منتصراً لليهود واليهودية وتسبق قيام حكومته العالميّة مجموعة كوارث ومصائب. فالمصائب والكوارث - إذاً - محتمة الحدوث عند الفريقين. والمسلمون معرضون للتنصير أو الإبادة عند النصارى والإبادة فقط لا غير عند اليهود.

والنصارى يؤمنون بأن السيد المسيح قد أوجب عليهم أن يبشروا بالإنجيل ويحملوه إلى جميع الأمم "**مرقس** (١٥٢) (علامات نهاية الزمان) وذلك لكي يجد السيد المسيح النصرانيَّة هي السائدة في العالم. وبالتالي فقد كان على ضحايا "تسونامي" أن يتنصروا قبل الكارثة، أو يبقوا على ما هم فيه من إسلام أو بوذيّة أو وثنيّة فيهلكوا، ويكونوا درساً لسواهم.

أماَّ المسلمون فإنَّ المؤمنين منهم بعودة السيد المسيح الثانية، وبضرورة مجئ المهدي المنتظر قبله فإنّهم لا يختلفون كثيراً مع التصورات السابقة إلاّ بالتوقيت وبالضحايا فبعض هؤلاء كانوا يبشرون منذ سنة ٢٠٠٠م بأنّ السيد المسيح لا بد أن يسبقه "المهدي المنتظر" الذي يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً، والمهدي يحكم لسبع سنوات يملأ فيها الأرض عدلاً، ثم ينزل سيدنا عيسى ويصر على الصلاة خلف المهدي؛ لأن نزوله سوف يصادف وقت صلاة الفجر بتوقيت دمشق التي سوف ينزل فيها على منارة بيضاء، وينزل من المنارة مباشرة إلى فناء المسجد فيجد الصلاة قد أقيمت، والإمام "المهدي" قد تقدم فإذا شعر بوجود عيسى تراجع، وطلب من عيسى أن يؤم الصلاة فيرفض عيسى ويقول: "بعضكم لبعض أئمة" !! ويستندون في ذلك إلى أحاديث وأخبار وآثار تحتاج إلى التصديق القرآنيّ والهيمنة عليها. المهم: كانت فئات من هؤلاء تبشّر وتكتب النشرات بالانترنت وسواه منذ سنة ٢٠٠٠ بأن زمن المهدي قد أطل، وأن ظهوره يغلب أن يكون سنة (٢٠٠٤م أو ٢٠٠٥م)، فإذا حسبنا الفارق بينه وبين نزول المسيح، وهو سبع سنوات، فذلك يعني أن نزول المسيح لن يكون فيما يذهب إليه هؤلاء سنة (٢٠٠٧) – أيّ: إنّه لن يكون في ولاية الرئيس جورج ووكر بوش الثانية؛ بل ربما يكون ذلك في ولاية "نيوتغرنكّج" أو أي جمهوريّ آخر يبسط البساط الأحمر للسيد المسيح ولكنّ النصارى لا يؤمنون بما تؤمن به هذه الطائفة من المسلمين. ولذلك فإن "الجودوكريستيان أو اليهود المسحيّين" لا يرون ما يمنع من مجئ المسيح قبل ذلك أو بعده بقليل: وأماَّ اليهود فإنّ المهم – عندهم – هو الحكم والنفوذ والسلطان. أما الدولة – عندهم – في قاعدة انطلاق ومقر قيادة؛ لكن النفوذ يجب أن يمتد= = ليشمل العالم – كلّه – فنحن نشهد – والحالة هذه – اتفاقاً لاهوتيّاً عجيباً هو أحوج ما يكون إلى دراسات تحليليَّة متعمّقة تجلّي لنا ما وراء هذا التوافق العجيب على ضرورة شيوع الفتن والحروب والزلازل والمجاعات والأوبئة. كل هذه المصائب العالميَّة الكبرى التي تشم من كل منها رائحة الجريمة، يجب أن تسجل ضد مجاهيل. ويجري تواطؤ لاهوتيُّ عجيب على التعمية على أسبابها ومقدّماتها، والدور الإنسانيّ والفعل الإنسانيّ فيها أو في إيقافها سواء أكانت حروباً أو عمليَّات إفساد في البيئة، وتلويث في البر والبحر والجو وثقب الأوزون، وتغيير طبيعة الأرض والبحر والجو والعيث فيها فساداً وتدمير عمرانها، والنظر إلى الطبيعة على أنّها عدو نصارعه لنصرعه وندمّره لكي يحقق الإنسان الغربي "التنمية الشاملة" ويعيش في حالة علوّ في الأرض. والنظر إلى الإنسان الغربيّ على أنَّه "نهاية التاريخ" من أكثر الأوهام البشريَّة دفعاً باتجاه الإفساد في الأرض فلا تاريخ بعده. وهو نهاية التطور الإنسانيّ "السوبرمان" وكل ما عداه أنواع بشريَّة متدنّية يكفي أن تقدم له الخامات والأيدي العاملة الرخيصة، وتتيح له فرصة التمتع بالفتات الذي يسمح للدورات الصناعيَّة والتجارية أن تستمر بالعمل.

ما الذي ساعد على بروز هذه التصورات:

إنَّ أبرز ما يلاحظه الباحث في هذه الظاهرة من الأسباب – هو: الغبش والاضطراب في إدراك مفهوم "اليوم الآخر" على حقيقته. وأنّه اليوم الذي يبعث الله – تبارك اسمه و تعالى – الخلق للحساب والجزاء على ما قدموا في هذه الحياة الدنيا. وأنّ تسميته "بيوم" ليس المراد منه أنّه يقع داخل الزمن الذي نعيشه؛ لأنّه مختلف تماماً عن مفهوم "اليوم" وخارج عن مفهوم "الزمن" الدنيوي فهو لا يحدث إلا بعد "تكوير الشمس، وانكدار النجوم، وتسيير الجبال، وتسجير البحار، وانفطار السماء، وتفجير المحيطات والبحار، وبعثرة القبور. كما أنّه يوم كألف سنة مما تعدون. وذلك يعني أن هذا الزمن الذي نعيشه له نهاية حتميَّة، وغاية حدَّدها الخالق – تبارك وتعالى – تنتهي بالفناء: "كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام"(الرحمن:٢٦-٢٧). وبعد نهاية هذا الزمن تماماً بما فيه ومن فيه. يجري البعث وتبدأ الآخرة دار الحساب. والإيمان باليوم الآخر هو الركن الثاني من أركان الإيمان. وهو منطلق وقاعدة "المسؤوليّة بكل أنواعها". والإيمان به من أشق الأمور وأصعبها على العقل الإنساني، والمشركون ينكرونه أشد الإنكار ويعجزون عن تصوره. والكتابيُّون الذين حرّفوا ما أوحي إلى رسلهم وأنبياهم أدخلوا عليه من التصورات الوثنيَّة والتغييرات ما جعله مفهوماً شديد الغموض، بالغ الاضطراب. ولا يتسع المجال – هنا – للدخول في تفاصيل ذلك. ومن المفيد لمن شاء أن يعرف اضطراب أهل الكتب في هذا أن يرجع إلى كتاب ابن حزم "**الفصل في الملل والنحل**" و**إرشاد الحيارى** لابن القيم و**الجواب الصحيح** لابن تيميّة و**إظهار الحق** و**الوحي**

العموم ولكنّ أصحاب كل دين – هنا – يعنون "بالانحراف عن الدين" الانحـــراف عـــن دينهم هم، وكل دين بمفهومه المستقل يعتبر التدين بالأديان الأخرى مظهراً مـــن مظـــاهر الانحراف عن الدين كذلك. وأنَّ هذا الانحراف يغضب الخالق – تبارك وتعالى – فيحـــل على البشر ذلك الغضبُ بشكل "لعنة" في مفهوم بعض الأديان، أو في شكل بلاء وعذاب في نظر البعض الآخر. ولعل ذلك ينبههم فيرجعوا عن ذنـــوبهم وخطايـــاهم وانحرافـــاتهم فتتوقف اللعنة أو تنتهي المأساة. وقد يرى البعض في كل ما يحدث تهيئة لشيء أكبر سيء

المحمدي لرشيد رضا. وقد أعدت رسائل جامعيَّة في عقيدة البعث والجزاء" كثيرة، فليرجع إليها. لأنّ الذي يهمنا هنا أن نوضح القاعدة الفكريَّة التي انطلقت منها هذه التفسيرات اللّاهوتيَّة العجيبة!!!

فإذا عرفت أنّ منطلق هذه التفسيرات – هو الاضطراب في فهم "الزمن واليوم الآخر، والفرق بين الحياة الدنيا والآخرة". فذلك يعني أن مآل تصوّر أصحاب الاعتقادات المنحرفة أو الباطلة في اليوم الآخر أن يقولوا بلسان المقال أو الحال: " **إن هي إلا حياتنا الدنيا**" والنتيجة الثانية: "**وما نحن بمبعوتين**"(الأنعام:٢٩) "**زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتُبعَثُنّ**"(التغابن:٧) والإعتقاد التوحيديُّ الصحيح باليوم الآخر: أنّ الحياة دار عمل وعمل وعمل، وأن الدار الآخرة – وحدها – هي دار الجزاء والحساب والثواب والعقاب. "**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون**"(التوبة:١٠٥).

إذاً: فاضطراب الاعتقاد في اليوم الآخر أدى إلى القول "بنهاية التاريخ". وأنّ الجنة والنار أرضيَّتان فالفردوس "هو فردوس دنيوي يحدث بشكل خضوع العالم – كلّه – إلى مملكة واحدة تنهي الثنائيات، والصراع والتدافع (فمملكة صهيون- ومملكة المخلّص المسيح – ومملكة المخلّص المهدي المنتظر – وفردوس الاشتراكيَّة، واليوتوبيا التكنولوجيَّة) وكل هذه الجنان المفتعلة جنان أرضيَّة تحدث في الزمن" بمفهومه الأرضيّ"). **الموسوعة اليهوديّة** (١/٨/مدخل نهاية التاريخ .بتصرف "والنظم الحلوليَّة (اللاهوتيَّة منها والماديّة الوضعيّة) نظم مغلقة تفضي إلى القول بنهاية التاريخ، ففي "وحدة الوجود اللاهوتيَّة" يحل الإله في الطبيعة، وفي الإنسان، فيستوعبهما في ذاته، ويصبح كل شيئ تعبيراً عن الإله، وتجسيداً له (ولا موجود إلا هو أو ما في الجبَّة إلا هو فينتهي التاريخ، ويلغي الزمن ويتحول إلى دورات متكررة تعاقبيَّة...وأماّ في " وحدة الوجود الماديَّة" فيحل الإله في الإنسان والطبيعة ويستوعب هو فيهما، ويصبح لا وجود للإله إلا بظهوره من خلالهما، والإنسان والطبيعة يتمثلان الإله ويحولانه إلى مجموعة من القوانين، منها "قوانين الطبيعة والمادة" و "قانون الحركة" و "قانون الصيرورة" ويصير كل شيء مسيراً بهذه القوانين ...فمن أحاط علماً بهذه القوانين بلغ المعرفة التي تمكنه من التحكم في العالم، وفي إنهاء التاريخ الإنساني والزمان، وفي بدء التاريخ الطبيعي وتأسيس الفردوس الأرضي. (الموسوعة اليهودية) وهكذا الموضوع نفسه يفقد "الإنسان والفعل والإنسانيّ قيمته ويصبح المخلّص ضرورة وحتميَّة في الرؤية اللّاهوتيّة وفي الرؤية الماديّة. أما "الرؤية الاسلاميَّة التوحيديَّة" فهي مغايرة لهذه الرؤى جميعها لا تتّسع لأيّ منها بحال: وبالتالي فلا بد للإنسان إذا رأى الظواهر المماثلة أن يدرك أن هنالك خللاً مّا قد حدث، فظهور التلوُّث والفساد في البر والبحر والجو لم يحدث بدون أسباب، وممارسات إنسانيّة خاطئة، ومثلها قضايا الفتن والحروب والصرعات. وتقب الأزون والتغيرات البيئية والجويّة بما كسبت أيدي الناس. وللتجارب النوويّة والهايدروجينيّة، والأسلحة الكيماويّة والبايلوجية أثمان باهضة تدفعها البشريَّة كلّها من صحتها، وسلامة بيئتها. ومثل ذلك إغراق حاملات النفايات النوويّة في المحيطات، أو دفنها في الصحاري... فهذه –كلّها – خارجة تماماً عن إطار التفسيرات اللّاهوتيّة.

ولقائل أن يقول: وماذا عن آيات قرآنيَّة كريمة ربطت بين ظلم الأمم وانحرافاتها وهلاكها، وكذلك أحاديث صحيحة فسّرت تلك الأحاديث مثل كثير من الآيات التي تحدثت عن مصائر الأمم والقرى التي عصت أنبياءها فأهلكها الله تعالى فإنّ الأنبياء كافة كانوا ينهون الأمم عن الفساد في الأرض: " وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا..."(الأعراف:٨٥) " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ {٢/١١} أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ "(البقرة:١١-١٢) "... وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ "(البقرة:٢٠٥) " ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ "(الروم:٤١)

والقرآن يفسّر بعضه بعضاً فقوله تعالى في هذه الآية: " وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ "(السجدة:٢١) مفسر بآية الروم وذلك يعني أن الإنسان الذي عاهد الله على التوحيد وتزكية نفسه وإعمار الأرض قد نقض العهد فأشرك أو ألحد ففقد "البوصلة الهادية" ولم يزك نفسه، ففقد أهليّته للوفاء بالعهد، والقيام بمهمة الاستخلاف فحقق مخاوف الملائكة الذين "قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك..."(البقرة:٣٠). وتخلى عن الأمانة التي حملها مختاراً. "إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنّه كان ظلوماً= = جهولاً"(الأحزاب:٧٢) فلم يؤد حقها، ولم يأبه بالكون الذي اؤتمن عليه، ولم يصلح فيه، ولم يقم بما يقتضيه حق العمران. فلابد أن يعم الفساد والشرور البلاد، ويتمرد الكون عليه، وتنقلب الطبيعة ضده. وهو أي الإنسان أولاً وآخر المسئول "بمجموعه، وبمعنى الإنسانيَّة فيه" عن ذلك كلّه.

ونسبة بعض الظواهر للخالق تعالى في بعض الآيات والأحاديث الصحيحة – هي: لتذكير الإنسان بالحضور الإلهي باستمرار؛ لئلا يقع في خطأ الإحساس بهيمنة الأسباب الماديَّة على سبيل الإطلاق وعلى كل شيء، وينسى الدور الإلهيّ – أي: دور خالق الإنسان والكون والحياة، فيقع في حالة الإلحاد أو الشرك أو الحلول.

أو حسن. ولا شك أن لهذا التصور ما قد يدل عليه، ولهذا التفسير للمأساة الإنسانية ما قد يعززه، ولكن كيف يصاغ ذلك؟

إن لهذا التفسير عدة صياغات لعل أهمها الصياغة "العمرانيَّة" وهذه الصياغة لا يقف الباحثون المعاصرون عندها طويلاً، وإن هم فعلوا فإنَّهم يمسُّون بعض أجزائها من اقتصاد أو سياسة أو اجتماع أو تربية أو أخلاق، وحتى أولئك الذين يلاحظونها في مجملها فإنهم لا يتناولونها التناول الشامل، ولا يربطون بإحكام بينها وبين الدين، وبينها وبين التوحيد خاصَّة، باعتباره أساساً ومنطلقاً للإيمان والعمران.

ولذلك فقد غلبت الصياغة "الّلاهوتية" في التفسير، وفي اقتراح الخلاص لاهوتيّاً كذلك، والصياغة "اللاهوتيَّة" من شأنها أن تخلط في الكثير الغالب بين ما هو وحي إلهيٌّ منزل صادر عن الإله الأزليّ الأحد- الذي أعطاه أقصى درجات الإطلاق والإحكام، وما بين نسبيَّة البشر من مفسِّرين ومؤولين، ولغويّين تتحكم بيئاتهم التاريخيَّة في المنتج المعرفيّ الذي يصلون إليه، أو يستنبطونه ويحملون الوحي عليه مهما حاولوا التجرُّد في مقاربتهم للنصوص الموحاة، حيث إنَّ هناك الكثير من المؤثّرات التي تحيط بالباحث قد لا يتنبَّه إليها، لكنَّه لا يستطيع التحرُّر منها؛ لأنَّها مثبتة في الثقافة، ومترسخة كامنة في التقاليد والأعراف، والمدلولات اللُّغويَّة، وما إليها، إضافة إلى تداخل الموروثات الدينيَّة ببعضها، هذه التداخلات التي تصل أحياناً حد صعوبة التمييز بينها، فالموروث المسيحي وتداخله مع الموروث اليهوديّ لا يحتاج من يريد إثبات ذلك التداخل إلى كبير عناء، فالعهدان القديم والجديد يمثلان لدى "البيورتنت"[١٧] المتطهرين!! مرجعاً واحداً، ولذلك فإنَّهم يفضلون أن يطلقوا على أنفسهم: أنَّهم "اليهود المسيحيُّون". وقد حجبت هذه التداخلات الموروثة والمتعاقبة الكثير من الفوارق المنهجيَّة بين الأديان، ومنها جوانب من تراث المسلمين الذي تداخلت معه وفيه كثير من "الإسرائيليات" بحيث أصبح ذلك جزءاً يصعب تمييزه عن التراث الإسلاميّ الذي بُني حول "الخطاب القرآني"، ومع أنَّ القرآن قد قام بنقد ذلك

[17] أولئك المتدينون الأصوليون البيض الذين هيمنت عل عقولهم في القرن السادس عشر فكرة الاتحاد أو التداخل بين الأساسيات اليهودية والمسيحية فاعتبروا أنفسهم جزءاً من شعب الله المختار، وجعلوا من ملك بريطانيا الذي اضطهد بعضهم، وهو "جيمس الأول" فرعوناً جديداً وبريطانيا egibt الجديدة وأمريكا أو العالم الجديد هي أرض الميعاد الجديدة، والمحيط الذي عبروه إليها هو البحر الأحمر الذي أنفلق لعبورهم.

التراث وتمحيصه ثم التصديق عليه والهيمنة على جوانبه – كلها – لتصحيح مسار الدين عقيدة وعبادة وشريعة ونظام سلوك وأخلاق ومعاملات. بيد أن تفسيرات أهل التفسير وتأويلات أهل التأويل قد ضمت الكثير من التراث الإسرائيليّ لأسباب عديدة (لا يتسع المجال لتفصيلها هنا، وقد تناولناها في حلقات أخرى من هذه السلسلة). ولعل من أهمّها توهم التشابه بين موضوعات وقضايا "الخطاب القرآنيّ" وموضوعات الكتب الأخرى، فأسقطت على تفسيره وتأويلاته الاتجاهات التلموديَّة واللاهوتيَّة في التفسير والتأويل، ظناً من المفسِّرين والمؤوّلين أنَّ التشابه في الموضوع يسوغ التشابه في التفسير والتأويل.[18] فنقلوا من تفاسيرهم وتأويلاتهم الكثير.

ضرورة بذل الجهود المعرفية لتنقية التراث:

إن تجريد المعارف الدينيّة التي بناها علماء المسلمين حول "الخطاب القرآنيّ" مما لحق بها، وكذلك نصوص الكتب السابقة اهتداءاً بالتصديق والهيمنة القرآنيّين صار يتطلب جهداً معرفياً كبيراً ومتنوعاً.

إن هذا البناء المشوه للفكر البشريّ الدينيّ الذي لم يسلم أيّ تراث دينيّ من آثاره أدى إلى خلافات خطيرة سرعان ما تحولت إلى صراعات فكريَّة مذهبيَّة وطائفيَّة ودينيَّة بين حملة الأديان المختلفة، وانقسامات داخل الذين يدينون بالدين الواحد، وانشطارات داخل الفرق والطوائف، فإذا أضيف إلى ذلك ما سنأتي على توضيح بعض معالمه من تفكيك "الحداثة" وما بعد الحداثة "للمسلَّمات الدينيَّة" نستطيع أن ندرك – آنذاك – أن خروج الإنسان من الأزمات، وتجاوزه للمآسي المحيطة به، وخلاصه من ذلك – كلّه – لم

---

[18] هناك نظريَّة شاعت بين المتخصّصين في دراسات "مقارنة الأديان" في الغرب، مفادها: تأثير دين في آخر اعتماداً على ملاحظة عامل التسلسل التاريخيّ وقد حاولوا بهذه النظريَّة تفسير التشابه الذي لا ينكر بين رسالات الأنبياء والمرسلين، وهذه النظريَّة لا نجد لها سنداً في القرآن المجيد. فالقرآن يؤكد مبدأ "وحدة الدين" و "وحدة الأنبياء" ومن البديهيّ أن مصدر الدين الواحد – هو الله تعالى -. كما أن اصطفاء الأنبياء والمرسلين شأن اختص الله – تعالى- به. وهذه الوحدة لا تعني ما فهمه أولئك من أن الاسلام دين ملفق من اليهوديَّة والنصرانيَّة فقد أساؤا الفهم وحرموا الإنصاف. ولو درسوا الإسلام من مصدره المنشيء: القرآن المجيد، ومصدره المبيِّن السنّة لأدركوا العلاقة السليمة ادراكاً صحيحاً، ولعلموا أن القرآن مصدّق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه. ومستوعب لثابت المشترك بين الرسالات، ومتجاوزاً للمتغيِّر: إنّ القرآن المجيد بتصديقه على الكتب السابقة في نزولها قد راجع ما فيها، وميَّز الموحى من الله منها عن الذي أضافه أهل تلك الكتب أو ضيعوه من الذين "نسوا حظاً مما ذكروا به، والذين يحرّفون الكلم عن مواضعه..." ولو أدرك علماء اللاهوت هذه الحقيقة لأحدثت في سائر علوم اللاهوت ثورة هائلة، ولا ستغنوا عن كثير من النقد الذي لم يغن عنهم شيئاً، وربّما وفروا جهودهم في تأسيس علم" الهرمونيطيقا the hermeneutics" ولقادهم القرآن قيادة الرائد الذي لايكذب أهله إلى الهدى ودين الحق الإلهي دين القيم المشتركة التي تستطيع أن توقف البشريّة على صعيد هدى واحد بدلا من البحث عن تأسيس "منظمة لوحدة الأديان" لن يكون دورها أفضل من أدوار المنظمات الدوليَّة القاصرة. وراجع "التحرير والتنوير ٢٢١/٦" وفصولاً من كتاب "الظاهرة القرآنيّة" لمالك بن نبي، منها "الحركة النبويّة" و "الوحدة الشريعية" و "العلاقة بين القرآن والكتاب المقدس"، وكتاب موريس بوكاي "الكتب المقدسة والعلم" وكتاب ابنتنا رقيّة "أثر العرف في فهم النصوص" قضايا المرأة أنموذجاً .
هامش ص ١٢ دمشق : دار الفكر- ١٤٢٤هـ٢٠٠٣م.

يعد من الممكن أن يكون خلاصاً دينيّاً لاهوتيّاً وبمنطلق ومنطق لاهوتيّن، بل يمكن القـــول بأن بعض "التراث الدينيّ" قد صار معرقلاً ومعيقاً لأيَّة وسائل خلاص، إن وجدت ســـواء على المستوى العالمي، أو على المستوى المحليّ، أو الإقليميّ.

١- وإذا كانت "الصياغات اللّاهوتيَّة" لمعالجة الأزمات الإنسانيَّة لم تعد قـــادرة إلا على الإضافة إليها والزيادة فيها فذلك لا يعني أن الذين حصروا "الخلاص الإنـــسانيّ" بتحويل الإنسان نفسه إلى "مركز للكون" يتمركز حول نفسه، ويجعل منها ذاتاً ومن كل ما عداها هامشاً سيكونون أقل عجزاً عن مواجهة هذه الأزمات الإنسانيَّة والمآسي المترتِّبة عليها من حملة الّلاهوت والفكر المنبثق عنه.

فالنزعة الوضعيَّة "positivism" قد حالت دون إيجاد حلول للأزمات الإنسانيّة، فقد قاوم الوضعيُّون كل ما هو غيبيٌّ باعتباره غير مرئيٍّ، وغير قابل للإدراك، حتى وجود الخالق رفضوه للسبب نفسه، كما رفضوا كل ما هو فوق الطبيعة أو ما يعد "ما ورائيّاً" لا يخضع للتجربة، ولايدرك بالحس؛ فهم يمثّلون رد فعل متطرف ضد الاستلاب الّلاهوتيّ أو الدينيّ بصفة عامة، وتحت هذا النوع من الضغط حصروا خلاص الإنسان في دائرة ذاتـــه، أو في دائرة "الجدليَّة الماديَّة" وما رتّبوه عليها من حتميّات تاريخيَّة.

وهؤلاء بعد أن ركزوا على تعليق قضايا الخلاص الإنساني للذات الإنسانية حـــول نفسها، سارعوا بتبنِّي الليبرالية "liberalism" إطاراً لإطلاق حيوانيّة الإنسان وإشباع رغباته كلها دون قيود، فاستظهرت الّليبرالية وتأصَّلت بـــالفردية "individualism" ثم سوغت "الفردية" بالنفعيَّة "utilitarianism" وأصّلت "النفعيّة" بالنزعة "الأدائيّـــة والأداتيّة أو العمليّة" واتخذت هذه النزعة الآليّة أو الأداتيّـــة "instrumental" نهجـــاً لتحقيقها.

الديمقراطية والحل:

وأمام مضاعفات "إطلاق الفرديَّة" وما أدت إليه من اغتراب وتفكيك وصـــراعات برزت "الديمقراطيَّة democracy" باعتبارها حلاً موهوماً أو مفترضاً في مجال "تقـــنين الصراع" واستيعاب القوى الجديدة، التي يفرزها المجتمع، فلم تكن "الديمقراطية" وليس من طبيعتها أن تكون حلاً للأزمات الإنسانيَّة، أو وسيلة للقضاء على الصراعات، وتوجيـــه

البشرية للدخول في السلم كافة في سائر جوانب نظمها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، إذ أن مهمتها فقط الحيلولة دون تفجر العلاقات بين أبناء المجتمع الواحد، واحتواء التناقضات بين فئاته وعناصره من خلال تقنين الصراع، واستيعاب القوى الجديدة في المجتمع. وهذا الاستيعاب كثيراً ما يتم بشكل وهميّ!! حيث يخيَّل للإنسان في الإطار الديمقراطيّ أنّه شارك في صنع القرار بمجرَّد أن أدلى بصوته، أو عبَّر عن نفسه. والتعبير عن النفس شيء، والمشاركة في صنع القرار شيء آخر. والمعطيات التي تؤثر في صنع القرار كثيرة متعدّدة. ولذلك فإنّ كثيراً من الرؤساء يجدون أنفسهم شاؤا أم أبوا عاجزين عن الالتزام بما أعلنوه في برامجهم المعروضة على الناخبين، ولا يملكون، ولا يملك منتخبوهم شيئاً. لقد تحول الإنسان من خلال "الديمقراطيَّة" إلى أداة إنتاج واستهلاك يدار – ديمقراطيّاً – وبرضاه التام بوساطة طبقة مهيمنة متعالية تتبادل هذه الإدارة بشكل يستلفت النظر، وباعتبارها أحزاباً سياسية أوجدتها الشعوب للتعبير عن إرادتها. وإن كانت قد انبثقت في بادئ الأمر عن الشركات الكبرى. وبذلك تحول "المذهب الإنساني" الذي أقيم على "مركزية الإنسان" إلى مجرد شكل أو شعار زاد في مآسي الإنسان ومعاناته واغترابه، وجعله يدور حول ذاته منقطعاً عن ربّه، وعن محيطه وجذوره، فاقداً لكل ما كان يربطه بكينونته الإنسانيَّة أو علاقاته العائليَّة أو تاريخه أو جذوره الحضاريَّة.

وبذلك وجد الإنسان نفسه يتخبط في "عبثيَّة وجوديَّة" تلقي به إلى مجاهل "الفراغ العدميّ" الذي جعله لا يبالي بشيء ولا يهمه أن يدرك شيئاً، فهو لا يدري أكثر من أنه لا يدري إذا توافر له الطعام والجنس. ودراسة أحوال الشعوب التي يسودها هذا النظام كفيلة بإبراز هذه الحقيقة المرّة. وإن تبجح قادتها بخلاف ذلك.

إنّ شخصية مثل هذه إن كانت قد بقي لها من مكونات الشخصية أو الكينونة الإنسانية شيء فهي مستلبة الوجود تماماً.(١٩)

---

[19] ننصح بالإطلاع على كتاب د.يمني طريف "**الحريّة والاغتراب**" المنشور بالقاهرة

الإنسان حيوان إعلاميّ:

لذلك فقد جعلت الأنظمة المختلفة من الإنسان "حيواناً إعلامياً" تفرّغه من مقوّمات كينونته، وعناصر شخصيَّته لتشخص له كل شيء إعلاميّاً بكل ما لديها من وسائل وأجهزة إعلاميَّة، فهو لا يشحن أو تبنى شخصيَّته تربويّاً ولا حضارياً، ولا دينيّاً، بل إعلاميّاً؛ لأنّه بالإعلام يسخّر لخدمة النظام والأيدي الظاهرة والخفية فيه التي يدار الإنسان بها. فهو إنسان يدور بين ساقيتي الإنتاج والاستهلاك وقيادة الإعلام. أينما توجهه — خارج ذلك - لا يأت بخير، إلا ما يفرضه الثلاثيُّ المذكور، ومع ذلك يخيَّل إليه أنَّه شريك فعليٌّ أو مساهم حقيقيٌّ في القرار السياسيّ من خلال ذلك الصوت الذي يدلي به في مواسم الانتخابات. وحين تجد الطبقة المتحكمة ضرورة لتجاوزه فما أكثر الطرق التي تستطيع أن تسلكها لتحقيق ذلك!! والوضع الأمريكيُّ الراهن نموذج لذلك. حيث جرى تمرير الكثير من الإجراءآت والقوانين المناقضة للديمقراطيَّة بكل معانيها القديمة والحديثة تحت ضغط الماكينة الإعلاميَّة بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر وما كان لشيء منها أن يمر لولا ذلك.

٢- هناك الفريق الثالث الذي اختار أتباعه للخلاص الإنساني سبيلاً آخر، حيث توهموا وجود الخلاص في دائرة "الحتميّات التاريخيّة" و "الماديَّة الجدليّة" التي زعموا أنَّهم اكتشفوها والتي تمر من أقنية "الصراع الطبقيّ" وهؤلاء لم يكونوا أقل استلاباً للإنسان من اللّيبراليين والرأسماليّين؛ فقد جردوا الإنسان — كذلك — من كينونته ووضعوه في إطار نمطيَّة أحاديّة مبوتقة لا تتصل بتاريخ الإنسان ولا بواقعه ولا مستقبله إلا من خلال الحزب المعبِّر عن مصالح الشعوب في إطار الطبقة والحزب وحدهما، وقد قطعت علاقة إنسانها بالتاريخ كلّه وبالحضارات الإنسانيَّة كافَّة، وجعلتها علاقة رفض ولعن وتحقير لها، فكلها حضارات طبقيَّة لم تأخذ "الشغيلة" فيها نصيباً، وكل تلك الحضارات صنعها الجلادون وأعداء الشعوب، والإقطاعيُّون، ومن إليهم من البرجوازيِّين. وكل دين هو أفيون معيق لتحرير الشعوب، فتجب محاصرة الأديان والقضاء عليها، وتحويل معابدها إلى ملاه ومراقص، ومتاحف إن أمكن، ويمكن للفنون من رقص وغناء ونحت ورسم وغيرها أن تلبي الحاجات النفسيّة والروحيّة لمن يجد في نفسه حاجة لذلك. وبلا مواربة

وبعد خمس وسبعين عاماً أعلن أصحاب هذه الأطروحة موهما وفشلها. وارتـــدت تلـــك "الحتميات التاريخيّة" و "المادِّيَّة الجدليّة" على أصحابها بالخسران والخذلان، وتفككَّ الحزب والإمبراطوريَّة التي أقامها، قبل أن يبني الحزب جنَّته الأرضيَّة ليعيش فيها مجتمع الرفاهيَّـــة الذي وعد الناس به. وحين تهاوت تلك الأطروحة سرعان ما عادت إلى الظهور داخـــل الاتحاد السوفيتي المقبور العصبيَّات القوميَّة، والأصول العرقيّة والطائفيّة والدينيّة لـــتعلن أن النظريَّات التي قامت على "المادِّيَّة الجدليّة" و "الحتميّات التاريخيّة" لم تستطع استئصالها أو تغييرها لكنَّها كمنت تحت سيف القهر، وحين وجدت فرصة للظهور المجدّد لم تتـــردد في اغتنامها لتعلن أنها كانت أقوى من تلك النظريَّات التي زعموا أنها نظريّات خلاص.

ماذا عن أمتنا؟

إن شعوب أمتنا في جملتها تصنَّف فيما يعرف بـــ"العالم الثالث" على تفاوت محدود في تلك الثالثيَّة. والأزمات والمآسي التي ترزح تحتها تمثل ضعف ما يجتاح عالم اليوم مـــن مآسٍ وأزمات، ذلك أنها ترزح تحت مشكلات عالم ما قبل الصناعة التي ترجـــع إلى مـــا يعرف بـــ"التخلّف" فهي أكثر شعوب العالم تخلفاً بمعايير التقدم الصناعي والتقني والعلمي والتنموي. كما أنها لم تنس نصيبها من أزماتها الخاصة بها التي تحدرت إليها من ماضـــيها وبعض الجوانب السلبية من تراثها. ولم يخفف من وطأة تلك الأزمات ماضيها المجيـــد ولا كونها صانعة الحضارات الإنسانية التاريخية في وادي الرافدين ووادي النيل وبلاد الـــشام والصين والهند وفارس واليمن. وأنها – بعد الإسلام – قد قدمت حضارة كان لها أثرهـــا الحميد في تسديد مسيرة البشرية، وإرساء الدعائم التي مهدت لهذه الحضارة التي صـــارت تعرف بـــ"الغربية".

إننا نقولها وكلنا حسرة: إن أمتنا في حالة سبات عميق لم تستيقظ منـــه بعـــد، ولم تسلك للنهوض سبيلاً، ولا تزال عاجزة عن الفعل، وتعيش حالة "ردود الأفعال" الناجمـــة عن الصدمات التي تصنعها وتبلورها الحضارة القائمة، الأوربيّة – الأمريكية، ولم ترتق بعد إلى حالة "الفعل" إذ لم تتوافر فيها شروط الفعل بعد، ففقـــدت الفاعليّـــة. وقياداتهـــا- بمستوياتها المختلفة- أفرزتها تلك الصدمات: فكانت قشرة أو فئة أو طبقة فوقية صـــغيرة توزعت وانتمت إلى الخيارات الغربيَّة في الخلاص في خارطتها العامة: فكان منها اللّيـــبرالي

والماركسيّ والرأسمالي والثوري والاشتراكيّ والانقلابيّ العسكري، أو الانقلابي الحزبيّ، وكذلك الدكتاتوريّ.

فكانت تلك الخيارات منبتَّة منقطعة زادت في أزمات الأمة، فهي لم تنبع من تفاعل مبدع مع قضايا الأمة. وجل ما حدث في داخل تلك المجتمعات، وانبثق عنها، لم يكن من الفاعلية بحيث يؤدي إلى تطوير طبيعي فيها فبقيت حتى اليوم في افتقار شديد للقواعد الفكريّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة لتستند إليها وتبلور تجاربها، وتفجر طاقاتها، وتنمي أفكارها، وتنتقل بها إلى حالة الإبداع الضروريَّة لأيَّة نهضة.

وقد عانت مجتمعاتنا – ولا تزال تعاني - من التناقض الحاد بين القيم الغربية التي أفرزتها الحضارة الغربيَّة المهيمنة، وعملت النخب الفوقيّة الحاكمة والمساعدة لها على غرسها وتبنِّيها وفرضها من علٍ على مجتمعاتنا[٢٠] وبين مؤثِّرات وبقايا الأنساق الحضارية المغايرة، والموروثات الإيديولوجيَّة والإدراكيّة المتأصّلة في ثقافتها، بحيث صارت ثقافة وأعرافاً وتقاليد ليس من اليسير على شعب مفارقتها بالأوامر والاجراءات الفوقيَّة، وهم يحاولون الآن استيعاب الأمة واحتواءها في إطار "العولمة" المعاصرة ليفرضوا عليها خيارات الخلاص وفق مقاييس ومواصفات هذه العولمة المعاصرة التي تقودها أمريكا، وذلك بعد أن فرضوا عليها عولمة سابقة قادها الاستعمار الأوربي التقليدي فأدخلت إليها ليبرالية زائفة انتهت بدكتاتوريات الأحزاب والعسكر والقبائل والطوائف. وأضفت شرعيّة زائفة على العسف والاضطهاد بألوانه المختلفة.

العولمة وما تعنيه:

إن "العولمة" المعاصرة وإن بدت كما لو كانت عولمة اقتصادية فقط – لكنَّها- في الواقع تعني – هذه المرة- الاستتباع والإلحاق بنظام عالميّ له مؤسّساته الدوليّة سياسيّاً واقتصاديّاً وأمنيّاً وتربويّاً وفكريّا وحضاريّاً بل والمؤسَّسات الدينيَّة كذلك. وقد منحت هذه المؤسَّسات للعولمة شرعيَّتها، وأخذت من هذه المؤسَّسات تفويضاً تاماً بتغيير قيم العالم

[20] إن عمليات "التحديث" في مجتمعنا كانت وسائل تدمير لبناها التحتية، وبعض المتبقي لديها من قيم موروثة، وفشلها لم يعد يحتاج إلى دليل، وهذه –وحدها – تحتاج إلى جملة من الدراسات لتكشف عما لحق بالأمة من خسائر وآثار خطيرة نتيجة تلك العمليات التحديثية المرتجلة.

ونظمه وقياداته، بل صارت هذه المؤسسات أداهًا ووسيلتها في إحداث تلــك التغــييرات القسريّة.

و لم تعد "العولمة المعاصرة" تقبل من الآخرين مجرد القبول بها،أو الانفتاح عليهــا، ثم التداخل الاقتصاديّ معها، لكنّها تصر على أن تعيد تشكيل أنظمــة الــشعوب والأمــم الأخرى على صورهًا، وتلحقها بها إلحاقاً عضوياً ليكون "الاستتباع" عضويّاً كاملاً غــير منقوص لا يفرق فيه بين السياسيّ والاقتصاديّ والتعليميّ والثقافيّ والفــنيّ والحــضاريّ. وعمليّات الاستتباع الثقافيّ والحضاريّ لا ترحم، ولا تغادر صــغيرة ولا كــبيرة مــن موروثات الشعوب الحضاريّة والمعرفيّة إلى قامت بتفكيكها، خاصة تلك الموروثات الــتي تقرر قيادة العولمة أنَّها قد تشكل عقبات ربما تحول دون تقبل هذه الــشعوب لعمليــات الاندماج في العولمة، ويتم هذا الاحتواء بعمليات جراحية كبيرة أو بسيطة تدعى " عمليات صراع الحضارات أو صدامها" ومنطق صدام الحضارات أو صراعها لا يفرق بين حضارة غائبة وحضارة قائمة ما دام لها بشر لا يزالون يعلنون الانتماء إليها. ويتضافر مع صراع أو صدام الحضارات أطروحات أخرى فرعية كثيرة نعايشها اليوم في كــل أنحــاء العــالم، وسيؤدي ذلك كله إلى احتواء ليبراليّ لهذه الحضارات والثقافات وشــعوبها، وذلــك لأن منطق اللّيبرالية جعلها تؤمن بأنَّها "نهاية التاريخ"[٢١]

الارتداد إلى الموروث:

والخطر الداهم — الآن - أن شعوبنا لم تعد تملك سوى تراثها وموروثها الحضاري والديني المنحدر إليها من أسلافها، وهو التراث الذي صاغه الأســلاف بطرائــق إدراك ومعرفة خاصة عائدة إلى المكونات التاريخيَّة لذلك الموروث، وهو في سائر الأحــوال لــه وعليه، وهنا مكمن الخطر إذ ستجد الأمة نفسها مسوقة دون اختيار للاحتماء بموروثاهًــا الحضاريَّة والمذهبيَّة والثقافيَّة والأيديولوجيَّة دفاعاً عن النفس، ودون تمييز أو نقد أو تجديد أو تمحيص، وهنا سوف تدخل الأمَّة في حالة تعصُّب لموروثاهًا بالحق وغيره، وهذه الحالة تجعلها في نظر العولمة أكثر تطرفاً وأصولية أو إرهابية إن أمكن هذا من وجهة نظرهم هم.

---

[21] أي: أنّها وصلت أعلى مستوى يمكن للإنسان أن يصله، فلن يجد التاريخ ما يسجله بعد ذلك. وراجع **موسوعة اليهود واليهودية**(١/٣٣٧-٣٣٨) وتأمل في الهامش (١٧) من هذه الدراسة.

أما من وجهة نظرنا فإن الخطر في ذلك الارتداد غير المنظَّم إلى الماضي هو في أنّه سيحمل شعوبنا في رجعتها هذه إلى الموروث على التوقف عن المراجعة وتجميد سائر حواس النقد ووسائله – إن وجدت – وتوقيف أيّة ممارسات تجديدية داخلية – إن وجدت- إذ لا صوت يعلو حينئذ على صوت معركة الدفاع عن النفس: فتصبح محاولات "التجديد النوعي الداخلي" على ضعفها وقلتها بدعة من البدع أو تواطأً مع قيادة العولمة، وفي أقل الأحوال تبعيَّة واستحساناً لبدائل العولمة: وتفقد الشعوب آنذاك القدرة على التمييز بين عناصر التحصُّن الداخليّ، وقوى الهجوم الخارجيّ فتدخل حالة "الفتنة التي تذر الحليم حيران".

وهكذا تبدو مشكلة "الخلاص الإنساني" أزمة مستفحلة وشاملة للمتقدم وللمتخلف، فللتقدم أزماته وللتخلف أزماته كذلك. ويستوي في العجز عن تحقيق "الخلاص الإنساني" الفريقان الفاعل والمنفعل.

فهل يكون الحل علمياً؟

لاشك أن العلم قد تقدم كثيراً، وتطور وارتاد آفاقاً تجاوزت الطموح الإنساني، وقد أصبح على مشارف اكتشاف "الكونيَّة" بكينونتها وعناصرها، ولاشك أن "الكونية" تحمل الحل، لكن البيئة الغربية الأمريكية والأوربية التي يعيش العلم ويتطور فيها وفي مؤسساتها لم تمكنه من الكشف عن القيمة الكونيَّة للإنسان، والقيمة الإلهية للوجود في تطورها العلميّ والفكريّ والمعرفيّ.

والّلاهوت لم يمارس تجديداً نوعيّاً يمكّنه من المساعدة على ذلك، والإسلام لم يكتشفوه بعد إلا من خلال أنظمة مهترئة، وأمثال ابن لادن وجون محمد وصدام ومن إليهم، ولا يزالون يتعايشون مع تاريخ المسلمين أثناء الحروب الصليبيَّة، وحروب الدولة العثمانيَّة والأندلس، ويقيسون الإسلام على ذلك. وحاضر العالم الإسلامي لم يتمكن ولم يسمح لأسباب كثيرة بصياغة "الخطاب الإسلامي التجديديّ" ولا يملك القدرة على ذلك. وقد لا يرى الكثير من الدعاة ضرورة لذلك التجديد النوعيّ، فلا غرابة أن يلجأ العديد من الّلاهوتيين في الغرب إلى الترويج للعودة الثانية للسيد المسيح، وقد يحدد بعضهم سنة سبع بعد الألفين موعداً لنزوله، أو ما بين سبع وتسع احتياطاً لينتهي التاريخ (بالمخلص

والأبناء الذين يحبهم). في حين يسود شعور في بعض الأوساط الإسلامية (بأن المهدي قد أطل موعد ظهوره)، وأن ذلك قد يكون عام ٢٠٠٥م [٢٢]، وهكذا تتعاضـــد وتتظـــاهر المتداخلات الّلاهوتيَّة بين المتخصصين في الأديان على تدعيم وتعزيز أفكار مـــشتركة في الجذور وإن اختلفت في المظاهر والانعكاسات والتأثيرات.

أين الخلاص؟

لقد تبين مما قدمنا أن العالم – كلّه – اليوم يبحث عن "الخلاص الكلـــيّ"، وهـــذا "الخلاص الكليّ" يتعذر أن تأتي به القوميّة العنصريّة أو الطبقيّة أو الحزبيّة أو الطائفيَّـــة أو الإقليميّة أو الّلاهوتيّة المتعصّبة أو الليبراليّة، أو الجدليَّة الماديّة والصراع الطبقي والحتميـــات التاريخيّة، أو أيّ طرح حصريّ أو أحاديٍّ ذاتيّ التكوين. ولا يمكن أن تأتي به "الديمقراطيَّة" و "العولمة" في طرحها الحالي: فالوضع العالمي الراهن لا يمكن أن يتقبل إلا حلولاً وبـــدائل قادرة على تقديم نفسها عالميّاً؛ بحيث لا يكون طرف يفرض، وطرف عليـــه أن يتقبـــل ويستجيب.وفي الوقت نفسه تكون قادرة علـــى اســـتيعاب وتجـــاوز فلـــسفات الأرض ومناهجها كافَّة، وليس هناك مصدر غير القرآن الكريم المحفوظ، المكنون، الهادي للتي هي أقوم يستطيع تحقيق هذين البعدين – معاً- أعني عالميَّة الحلول والبدائل والمعالجات وشموليَّة المنهج المعرفيّ، وقدراته الهائلة على التصديق والهيمنة والاستيعاب والتجاوز.

فالقرآن بخصائصه – ولا مصدر سواه – يستطيع أن يقوم بالتصديق والمراجعـــة ثم الهيمنة على سائر المناهج المطروحة، وإعادة صياغاتها ضمن منهجه الكوني. والقـــرآن – وحده – وبتصديقه وهيمنته قادر على استيعاب تلك المناهج وإصلاحها وتنقيتها وترقيتها ثم تجاوز السلبيّ منه والاحتفاظ بالإيجابيّ. فالقرآن هو الأقدر على أن يعالج القرآن بمنهجيته القائمة على "الجمع بين القراءتين"(٢٣) مشكلات الوجود الإنساني وأزماتـــه الفكريَّـــة والحضاريَّة، ويدخل الناس حالة السلم كافَّة.

إن القرآن (لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) (الواقعة:٧٩) والمطهّرون هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، وعهد الله لا يناله الظالمون، والسماوات والأرض ما خلقا بـــاطلاً " مَـــا

[22] ثم ينزل المسيح بعد ذلك. ويبدو أن مؤلفي "المفبركان الباطل" أطلقوا اسم "الصفيّ" باعتباره المتلقي لهذا "المفبركان الباطل" واسم "المهدي" باعتباره من ترجم معانيه. وتأمل هامش (١٧) في هذه الدراسة.

[23] سنأتي على تفصيلها في الحلقة الثانية من هذه السلسلة.

خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ "، والإنسان بالغاً ما بلغ فإن خلق السماوات والأرض أكــبر مــن خلقه: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُــون﴾ (غافر:٥٧). وليعطينا القرآن بعضه لا بد أن نعطيه نفوسنا وعقولنا وقلوبنا كلَّها، ولا بد من تحقيق عدة أمور تمهيدية قبل الولوج إلى رحابه:

الأول: تجريد وتنقية معارف وحيه من سائر آثار النسبيَّة البشريَّة الــتي أحاطــت بمطلقه، وحجبت أنواره، وأخضعته لوعيها الذاتيّ، وحكمت عليه بتاريخانيَّتها، وحكَّمــت بمحكمه أيديولوجيَّاتها وثقافاتها وأعرافها وتقاليدها، وقاموسها اللُّغويّ. فإذا لم نجرد "آيات الذكر الحكيم" من ذلك – كله – وإذا لم نعد قراءته بنور القراءتين المذكورتين في بدايــة نزوله وأوائل آياته، قال تبارك وتعالى :﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِــنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلــق١-٥). وفي إطار وحدته البنائيَّة. فإننا لن نتمكن من فهمه معرفيّاً، ولن نتمكن من تحليــل آياتــه وتثويرها واستنطاقها، وإذا لم نصل لهذا فلن نستطيع أن نستوعب بــه منــاهج العلــوم المعاصرة ونتجاوزها، بحيث نتمكن من إعادة فهمها وتوظيفها في إطــار "الكونيَّــة"؛ لأن ذلك – وحده- الذي سيساعدنا على إعادة بناء العقل الإنساني وصياغته انطلاقــاً مــن: التوحيد والتزكية والعمران صياغة كونيَّة إلهيَّة.

الثاني: الالتزام بالأمانة مع القرآن فكريّاً ونفسيّاً فلا ندخل إلى عالم القرآن بحثاً عن شواهد لأفكار بنيناها بعيداً عنه، ومبادئ وضعناها خارجه؛ لأن المطلوب أن نبدأ حركــة التغيير بالقرآن من داخل النفس، فإذا تهيأت النفس وانفعلت به انعكس استعدادها وتهيؤها وانفعالها بالإصلاح على ما حولها، ثم تنداح دوائر الإصلاح – آنذاك – استعداداً وتهيئــاً على مستوى جماعيّ، وذلك أقوى بكثير من مشاريع إصلاحات فكر النهضة في نهايــات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وإن كان فكر النهضة اجتهاداً صدر من أهله. كما أنَّ ما ندعوا إليه أعمق من تحولات الأفكار الثوريّة، وأكثر فاعليّة من سائر التنظيمات التي قامت أو تقام على أساسها.

أما ما درج عليه المعاصرون من الإسلاميِّين من الاهتمام بالحشد العدديّ والتركيــز عليه، والاتجاه نحو التجميع الكمِّي دون فكر قرآنيّ، ودون منهج قرآنيّ صــارم كــذلك،

والتصرف بعيدا عن منطلقات التغيير من داخل النفس، فإن ما يفعلون لا يعدو أن يكـــون مشروعاً سياسيّاً قد يؤدي في حالة نجاحه إلى تسلّط فئة أو وصولها إلى سلطة في قطر مّـــا كليّاً أو جزئيّاً، لكن ذلك لن يؤدي إلى تغيير بالقرآن لما في النفس والمجتمع وجهاد به. والله لا يعطي عهده للظالمين، ولا للذين يريدون علواً في الأرض وفساداً، أو أولئـــك الـــذين يتكبرون في الأرض بغير الحق، إذ أن مآل هؤلاء الخضوع إلى سنَّة "الصرف عن آيات الله" ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِـــأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف:١٤٦) وأعمال هؤلاء الغافلين عن آيات الله لا قيمة لها ولا أثر في بناء العمران، أو صناعة التاريخ إلا الآثار السلبية، فهي أعمال حكم عليها بعدم الفاعليَّة التامَّة، وبفقدانها لأيَّة آثار عمرانيَّة إذ هي كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً، كما أنَّها أعمال محكوم عليها بالحبوط.

الثالث: الدخول إليه بعد فهم "الأزمـــة" وإدراك أبعادهـــا – كلّهـــا - والإلمـــام بتعقيداتها، والإيمان بقدرة القرآن المجيد على إيجاد حل مناسب لها، وأن لا مـــصدر غـــير القرآن يستطيع أن يقدم العلاج الشافي فيها. ولذلك فلابد من الاطّراح على أعتاب القرآن اطّراح المفتقر، المدرك لتجرُّده من كل طول وحول للخروج من أزمته إلا بالله – تعالى – وكلماته.

الرابع: إدراك "الخصائص الذاتيَّة" للأمَّة القطب أو للأمَّة المنطلق التي يـــراد لهـــا أن تكون ميدان الإصلاح والتغيير الأول، وقاعدة الانطلاق باتجاه "العالم والعالميَّة" وفي الحالة التي نحن فيها فإن "المنطلق" هو الأمَّة المسلمة- والعرب في موقع القلب منها - ما دامت لم تخضع بعد لسنَّة "الاستبدال" بإيجاد أمَّة مسلمة بديلة عنها. وخصائص المسلم الذاتيَّة - التي غرسها الإسلام فيه - هي الخصائص التي لابد أن تظهر في محيط الأمـــة، وتتحـــول إلى ثقافات وأعراف سائدة وجزء من الهُوِيَّة.

إنَّ خطاب الإصلاح والتغيير الذي جرى تكوين المسلم بمقتضاه خطاب قرآنيٌّ، فهو يتَّجه بشكل مباشر هادف إلى الإنسان في كينونته الكاملة عقلاً ونفساً ووجداناً وعاطفةً، فهو خطاب لا بد أن يبدأ بالإنسان ذاته ونفسه في إطار الأمَّة من غير انحراف نحو عرق أو

طبقة أو لاهوت أو ما إليها، فإنَّها – كلّها – تتنافى مع مكونات هذا الإنسان وخصائصه، ولا يمكن لأي نوع من أنواع الخطاب الأخرى التي تمت صياغاتها قديماً أو حديثاً في أمريكا وأوربا وروسيا والصين وسواها أن تشكّل منظومة دوافع الفاعليَّة لدى هذا الإنسان المسلم، لعجزها عن ملامسة خصائصه الذاتيّة وذلك قدره.

إن نجاح تلك الخطابات المغايرة في تشكيل الدوافع لدى الأمم الأخرى، وإحداث التغيير فيها لا يقوم دليلاً ضد ما ذكرنا، بل قد يعزز ما ذهبنا إليه.فلكل أمَّة خصائصها، ومفاتيح التغيير القادرة على ملامسة هذه الخصائص.

خطابات التغيير الأخرى:

ولقد شكل خطاب التغيير الطبقيّ مجموعة الدوافع التي انتهت بالثورة الفرنسية عام (١٧٩٨)م. وتحت تأثير ذلك الخطاب الطبقيّ – والثورات الطبقيَّة التي نجمت عنه – تحققت الثورة البلشفية في روسيا عام (١٩١٧)م. وبتأثير الخطاب العرقيّ قامت النازية عام (١٩٣٣)م في ألمانيا. وبالخطاب الّلاهوتي تأسست البابويَّة. وبخطاب المزج بين اللاّهوتي والعنصريّ العرقيّ تأسَّست دولة إسرائيل. لكن هذه الخطابات بسائر صيغها وبكل التعديلات التي أدخلت عليها لم تصنع ما استعير منها في الواقع الإسلامي وفي الواقع العربي منه بالذات ولن تصنع إلا مزيداً من التفكُّك والتشرذم والسلبيَّة والتراجع، والمراكمة على رصيد التجارب الفاشلة.

وعلى ذلك فإنَّنا بحاجة لأن نوقن بهذه الحقيقة، وأن نجعل منها أمراً بديهيّاً شائعاً في أوساط الأمة، وأن لا نمل التأكيد عليها حتى تستقر في العقول والقلوب والنفوس، وتنطلق بها الألسنة والأقلام لتصبح تياراً أو روحاً يسري في الأمّة – كلّها - لتحدث حالة الاستعداد للنهوض، والتهيؤ لقبول "الحل القرآنيّ".

الأمَّة القطب بمجموعها وبخصائصها :

إن "خطاب الإصلاح القرآنيّ" خطاب تشكل الأمَّة الشاهدة معالم تطبيقه وتنفيذه وتحقيقه وتثبيته في الواقع - بعد خاتم النبيين الشاهد والشهيد-. الأمَّة الشاهدة القطب التي "لا تجتمع على ضلالة" و"لا تجتمع على خطأ" فهي ليست حزباً ولا جماعة ولا حركة ولا طائفة ولا جمعيّة ولا فرقة ناجية،ولا هيئة وصاية، ولا هيئة أمر بالمعروف ونهي عن المنكر،

ولا مرجعيَّة، ولا قاعدة، ولا هيئة كبار علماء مهما كبروا، ولا مجموعة المجالس والمجامع، ولا الطائفة المنصورة، ولا منظمة المؤتمر الإسلامي، ولا جامعة الدول العربية، بل هي الأمَّة – كلّها - باعتبارها أمة وبوصفها أمّة دون افتئات أو مصادرة عليها،أو حديث عنها بالنيابة والوكالة. إنّها الأمة القطب بخصائصها الذاتيَّة ومقوّماتها الفكريّة، وشخصيَّتها المتميزة. وأرجو أن لا يذهب وَهْم أحد إلى أنني أدعو إلى إلغاء سائر التجمُّعات وتسريح سائر الدعاة، وإنهاء خدمات سائر المؤسّسات، (حتى ينتشر الوعي لدى الأمة – كلها – بفضل قراءة القرآن المجيد لتقوم قومة رجل واحد فتحدث النهضة، ويتحقق التغيير) لكنَّني قصدت أنَّه لابد لخطاب الإصلاح والتغيير لهذه الأمة أن يلاحظ خصائص التكوين عندما يصوغ خطاب التجديد والتغيير.

فما هي أهم خصائص التكوين؟:

إنّ القرآن المجيد قد أخذ بأيدينا إلى أهم خصائص التكوين وتتلخصّ بـ"وحدة المرجعيَّة" "إيجاد الأمة الواحدة المتآلفة القلوب" و"الالتزام الجماعيّ المؤكد الصارم" بهذين الأمرين "وإيجاد آليّة لاستمرار ذلك"، وهي: "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" بشروطهما ومواصفاتهما ومستوياتهما. قال تبارك وتعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران:١٠٣-١٠٥) فالأمر بالاعتصام بحبل الله جميعاً، ونبذ التفرق والاختلاف جميعاً خطاب شامل للأمة – كلّها – لا يستثني فرداً منها بحال، وفي ذلك تحديد للمرجعيَّة الواحدة من ناحية، وبناء لضمير الالتزام الجمعيّ الشامل – من ناحية أخرى – بجميع قضايا الأمة وفي ضمائر أبنائها كافَّة، وتأكيد على ضرورة الإرادة الجماعيَّة الشاملة في قلوب أبنائها جميعاً لتكون أمة، ولتبقى أو تستمر أمة قائمة، وهذه الأمور الثلاثة: (تحديد المرجعية بالقرآن، والتأكيد الدائم على ضرورة الالتزام بها، وبناء ضمير الالتزام الجمعيّ في ضمائر أبنائها كافة، وإيجاد وترسيخ الإرادة الجماعيَّة الشاملة في

قلوب أبناء الأمة كافة وصيانة ذلك- كلّه – بآلية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) تؤدي – كلها – إلى تحديد الرابطة بين أبناء الأمَّة – كلّها – ألا وهي الأخوة، وبيان الوسيلة التي أدت إلى ذلك وهي "التأليف بين القلوب" والتأكيد على أن أيَّ ضعف أو انحراف أو إخلال بمفهوم الأخوة وهيمنته على العلاقة بين المسلمين، أو تجاوز وسيلته الأساس ودعامته الكبرى ألا وهي "التأليف بين القلوب" يعني إنهاء الروابط داخل الأمّة، والدخول في حالة العداوة وبلوغ شفا حفرة من النار ثم السقوط فيها والعياذ بالله.

فما الذي يستلزمه ذلك؟

إن ذلك يستلزم أن تتمخض الأركان التي ذكرنا "وحدة المرجعيَّة" وتأكيد "الالتزام الجمعيّ" بقضايا الأمَّة، وتشكيل الضمير المتابع لذلك، و"تحقيق الإرادة الجمعيَّة" وتحقيق "التأليف بين القلوب" للوصول إلى حالة "الأخوة" تتمخض من أن تنبثق أمَّة من الأمَّة، بحيث تكون بعد ذلك الأمَّة كلها، وتضع في مقدِّمة أولويَّاتها بعد أن تتحقق هذه الأركان فيها، أن تبلغ بالأمَّة – كلَّها- حالة تجعلها قادرة على ممارسة دورها في الخلافة والشهود والعمران آنذاك.

فهذه الأمَّة تتحرك بالإرادة الجمعيَّة للأمَّة، لأنها منها، فتبقى الأمة هي الكيان الأساس، لا الحزب ولا التنظيم ولا الجماعة ولا الطائفة، ولا المذهب ولا الإقليم. ولذلك قال تبارك وتعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤) فهذه الأمَّة الخيِّرة، المتحلية بكل هذه الصفات جزء من الأمّة، ملتصق بها، تكوِّنه الأمّة طليعة لها، للتفاعل معها، ومن التزامها بخصائص الأمّة. تستمد شرعيَّتها ووجودها، فهي مثل أعضاء الجسم الواحد أو كريَّات الدم تؤدي أدوراها في التحام تام بالجسم، ودون انفصال عنه: فالجسم – كلّه - هو الذي يحمل لها الحياة، ويمدها بالحيويَّة، وهي تؤدي أدوارها فيه، ومن خلال ما ينتجه ذلك الجسم لها، فهما شيء واحد لا انفصام لهما.

وهذه الأمَّة التي تتكون منَّا بإرادتنا الجمعيّة، وباختيارنا الحر تتجسد أحياناً في شكل نظام، وأحياناً في شكل تنظيم وأيّاً كان الأمر فليس من حق النظام، أو التنظيم أن يتكون خارج الأمة، أو ينفصل عنها قبل التكوين أو بعده، أو يتجاهل أيّاً من الأركان التي جاءت

بها آية "الاعتصام بحبل الله"؛ فإن هو فعل فسيخلق حالـة عـداء ويـؤدي إلى التفـرق والاختلاف، وكل ما يخلق أيّاً من هاتين الحالتين مرفوض ومردود، ولن يؤدي إلى تحقيـق الهدف.

الأمة بين جور النظم وافتات التنظيمات:

من المؤسف أن نرى أمتنا بعد أن طال عليها الأمد، وغابت عنها هـذه القواعـد تعيش بين حالتي استلاب قد أوكلتها إلى نظام يستلبها ويستعبدها ويـستبد بهـا، أو إلى تنظيم يفتات عليها، ويمزّقها ويفرض نفسه عليها ناطقاً باسمها أحياناً أو ممثّلاً لها أحيانـاً، دون أي تشاور أو رجوع إليها؛ فكأنها تتذبذب بين جور النظام واستبداده، وبين تفرقـة التنظيم وتصنيفه وتمزيقه لها، واستعلائه عليها، فتستجير بأحدهما من الآخر ولسان حالهـا يقول:

والمستجير بعمرو عند كربته *** كالمستجير من الرمضاء بالنار

ولا خروج من هذه الدوامة إلاّ بأن يكون كل من النظام والتنظيم متلاحماً مع الأمّة، ملتصقاً بها، وليكتسب كل منهما الفاعليَّة والشرعيَّة يجب ويتحتم أن يكون أمَّة في داخل الأمّة، وأمّة من ذات الأمَّة، لا يوجد أيٌّ منهما خارجها، ولا يتخلق بمعـزل عنـها، ولا يتجاوز تاريخها ومكوّناته، ولا يتجاهل "جدليّة" ذلك التاريخ وهو يتحرك لتغيير ما فيهـا وإصلاح أحوالها، بأن ينصرف إلى تكريس النظام وحمايته فيتحول إلى مـستلب للأمَّـة بالنظام، أو يتجه إلى الحزب أو إلى التنظيم فيتحول إلى مفرّق لها، فارض نفسه عليها، فيثير العداء في صفوفها، والاختلاف والتفرق بين أبنائها. ويوجد حالات الصراع الداخلي بين فصائلها.

منكم لا عليكم:

إن الأنظمة المستبدة – في مختلف أقطار أمتنا المسلمة وأقاليمها لم تأخذ بقوله تبارك وتعالى: { وَلْتَكُن مِّنكُمْ } فتحولت إلى "عليكم" فصارت متسلّطة علينـا، مـستبدة في شؤوننا مفتاتة علينا، مستلبة لإرادتنا تستمد شرعيّة وجودها من خارجنا، تـسوغ ذلـك لنفسها بشتى المسوغات، ومنها: قصور الأمّة، أو عجزها عن إدراك مصالحها!! وما مـن أمة مجتمعة إلا وهي أعقل وأحكم من أهل الاستبداد فيها مهما بلغت درجات تعلّمهم أو

ذكائهم أو تدريبهم، فالزعيم المستبد يمكن أن يضل ويشقى ويخطئ ويجهل، أما الأمّة إذا اجتمعت كلمتها، وتمتَّع أبناؤها بحقوقهم، واستردوا إنسانيّتهم ومارسوا حريّاتهم فمهما أخطأت فلن تجتمع على الخطأ، ومهما انحرفت فلن تجتمع على ضلالة.

لكن قيادات النظم المتجاهلة ل"منكم" والمتسلطة "عليكم" وكذلك التنظيمات ترى في الأمة أسوأ ما فيها فتستعلي عليها، وتستكبر، ثم تستلب إرادها، وتستمرئ الطغيان عليها فتصبح الأمة – آنذاك – غثاء كغثاء السيل تلعن حاكميها ويلعنوها ولا يأتي أيٌّ منهما بخيرأينما توجّه. ويستعين كل منها على الآخر، ويستقوى عليه بالآخرين.

الاستبداد لا يأتي بخير:

إن "العبودية" رتبة شرف حين تختص بالله – تعالى – أمّا حين تصرف إلى غيره فهي مذلة وهوان وصغار فهي – آنذاك - أحط درك ينحدر الإنسان فيه

ولقد هفا "حكيم الشرق" جمال الدين الأفغاني – رحمه الله- "وهفوات الكبار على أقدارهم"، وذلك حين قال: "إن هذه الأمة "المسلمة" لا تصلح إلا بمستبد عادل" ولو تأمل رحمه الله قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق:٦-٧) لأدرك أن "العدل و "الاستبداد" نقيضان لا يجتمعان في رجل أو نظام، أو تنظيم فإمَّا عدل وشورى فينتفي الاستبداد، وإما استبداد واستعلاء، فتنتفي الشورى، ويختفي العدل. وتظهر عبودية الإنسان للإنسان. والأمَّة التي تطاوع على ذلك أمَّة ناكثة لعهدها، متراجعة عن قولها "بلى شهدنا" ناقضة لعروة من أهم عرى "التوحيد" ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف:١٧٢). ومستقيلة من مهمة الاستخلاف ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٣٠). وهي خائنة للأمانة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب:٧٢).

وراسبة في اختبار الابتلاء ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك:٢). ومتخلية عن عبادة الله إلى عبادة العباد ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن

دُون اللّه مَا لاَ يَمْلكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَات وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطيعُونَ * فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّه الأَمْثَالَ إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ منَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفقُ منْهُ سرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ للّه بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**)** (النحل:٧٣-٧٦).

فكل هذه الانحرافات ثمرة لأزمة تصيب الأمَّة حين تتقبل حالة الاستلاب الطاغوتيّ، سواء أكان من نظام أو تنظيم فهي بكماء خرساء أينما توجَّه لا تأتي بخير، كل على أولئك الذين استلبوها، غثاءُ كغثاء السيل.

لقد توهم فرعون أنّه إله حين طغى واستمرأ الطغيان، وطاوعته جماهير شعبه المخدوعة، المستذلّة المخلدة إلى الأرض، فلبَّوا نداءه، فحشرهم، وإذ رأى كل تلك الجماهير الأصفار الصغار حوله انتشى، وأسكره خضوعها "...فانطلقت منه الكلمة الوقحة المتطاولة، المليئة بالغرور والجهاله: **(**أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**)** (النازعات:٢٤) قالها الطاغية مخدوعاً بغفلة جماهيره وإذعانها، وانقيادها. فما يخدع الطغاة شيء مثل ما تخدعهم غفلة الجماهير وذلتها وطاعتها وانقيادها. وما الطاغية إلاّ فرد لا يملك في الحقيقة قوة ولا سلطاناً إنّما هي الجماهير الغافلة الذلول، تمطي له ظهرها فيركب! وتمد له أعناقها! فيجر! وتحنى له رؤوسها فيستعلي! وتتنازل له عن حقها في العزة والكرامة فيطغى.

والجماهير تفعل هذا مخدوعة من جهة، وخائفة من جهة أخرى؛ وهذا الخوف لا ينبعث إلاّ من الوهم، فالطاغية – وهو فرد- لا يمكن أن يكون أقوى من الملايين والألوف لو أنّها شعرت بإنسانيّتها وكرامتها وعزّها وحريَّتها. وكل فرد فيها هو كفء للطاغية من ناحية القوة، ولكن الطاغية يخدعها فيوهمها أنّه يملك لها شيئاً! وهو لا يملك لنفسه شيئاً. وما يمكن أن يطغى فرد في أمَّة كريمة أبداً. وما يمكن أن يطغى فرد في أمّة رشيدة أبداً، وما يمكن أن يطغى فرد في أمّة تعرف ربَّها، وتؤمن به، وتوحده، وتأبى أن تتعبّد لواحد من خلقه لا يملك لها ضراً ولا رشداً..."[٢٤]

---

[24] في ظلال القرآن: (٣٨١٥/٦) تفسير سورة النازعات.

روى لنا وزير أوقاف أحد المستبدين أن سيده سأله مرة إن كان ممن تجب عليهم الزكاة؟ وبعد سلسلة من الألقاب قال له وزيره "نعم": تجب الزكاة على من يملكون النصاب، وسيادتكم منهم "فأجاب السيد الرئيس" ألا ترى أنني أطعم الشعب كله، وأوفر له الدواء والكساء والتعليم والنقل، ألا يعد هذا أكثر من الزكاة بالنسبة لي؟ فبهت الوزير ودعا للسيد الرئيس وانصرف. وهذا الرئيس كان قبل الرئاسة معدماً عالة، ومن أسرة معدمة جعل رزقه مربوطاً بمسدسه يبتز به الضعفاء ويسلبهم أموالهم، إلى أن بدأ التدرج في سلالم الحزب والسلطة فاستلب الحزب واغتصب السلطة فأصبح مال الشعب كله ماله الشخصي، وكأنّه رأى في شعبه أولئك الضعفاء الذين كان يسلب ما معهم من نقود، ويضربهم وينصرف بما معهم على أنَّه ماله وحلاله مادام آل إليه ولو بالاغتصاب!!

أفيستغرب – بعد ذلك – أن ينهار هذا الشعب المستلب أمام أعدائه ولسان حاله يقول ما قاله الشاعر الجاهليّ:

لا أذود الطير عن شجرٍ **** قد بلوت المر من ثمره

وحين تفقد الأمة ثقتها بالنظام، وتنهار الجسور بينها وبينه، يبرز فيها الاستعداد لقبول البدائل إن وجدت، وهنا يأتي التنظيم، ويطرح نفسه بديلاً بين يدي الشعب، ويطرح من الشعارات ما يخلب الألباب، ويسوق انتقادات كثيرة للنظام، ويؤكد بأنَّه "منكم وإليكم"، فإذا ما منحت الأمة التنظيم شيئاً من ثقتها سرعان ما تبرز روح "عليكم" للتعبير عن التسلُّط والوصاية والامتياز وروح الاستعلاء، وكأن صفات النظام تتلبس بالتنظيم، بل تنمو فيه وهنا ينبّه القرآن الكريم إلى هذه الحالة فيقول تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ * وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ * يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (٢٠٤-٢٠٧).

ولتدخل الأمة في حالة السلم لابد لها من تجاوز- أي أن تتجاوز كل ما يثير عداءاً بين أبنائها سابقاً أو لاحقاً، وكل ما يثير اختلافاً بين فصائلها. فالتنظيم الذي لا تتجسد

فيه روح "منكم" بكل المعاني التي ذكرناها فإنه سيكون مصدر اختلاف، ومصدر تفرُّق، يسوغ لنفسه الاستعلاء والافتئات على الأمة، وقد يلوي أعناق النـــصوص، وينحـــرف بالخطاب ليدعم سياساته المنبثقة من روح "عليكم" وتصبح الأمة أو الشعوب بين مطرقـــة استلاب النظم وسندان استلاب التنظيم.

ظاهرة الصراع العربيّ الصهيوني ودلالاتها:

إن العالم اليوم يلاحظ ظاهرة الصراع العربيّ- الإسرائيليّ وما يجري في فلسطين من قتل وتشريد وتدمير، ويتخبط الناس في تفسير هذه الظاهرة خبط عشواء، ويعطوها مـــن التفسيرات ما يشاءون، ولها عندنا من هدي القرآن ما يمكن أن يفسرها أو علـــى الأقـــل يفتح لتفسيرها طريقاً يسراً، يتلخص في أن الله – تبارك تعالى – قد حمّل بـــني إســـرائيل التوراة فأبوا أن يحملوها، فقال فيهم تبارك وتعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّـــوْرَاةَ ثُـــمَّ لَـــمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّـــهُ لَـــا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الجمعة:٥). وهؤلاء – اليوم - يواجهون أمَّة أخـــرى حُمِّلَـــت القرآن فلم تحمله كذلك، وفي الآية الثانية من سورة الجمعة يقول تعالى ﴿هُوَ الَّذِي بَعَـــثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَـــانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِـــمْ وَهُـــوَ الْعَزِيـــزُ الْحَكِـــيمُ﴾ (الجمعة:٢-٣).

فهذه الأمّة المسلمة المسكينة بلغت ذات المستوى الذي بلغه شعب بني إسرائيل حيث حمِّلت الأمّة المسلمة القرآن فلم تحمله إلا بتلك "الطريقة الحماريَّة"، نقرؤه على موتانـــا، وتتسلى به إذاعاتنا، ويتبرك به كسالانا، وتضعه فتياتنا على صدورهن العارية، فما هـــي النتيجة؟ بنو إسرائيل ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَـــاتِ اللّـــهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءِ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ (آل عمران:١١٢). وبـــذات الطريقة حملنا القرآن الكريم – على الظهور، لا في القلوب والعقول - فـــضربت علينـــا الذلة، وأمددنا أعداءها بحبل انحراف منَّا، حين نزع الله منا أمانة الاستخلاف، وجعلنا في مواجهة قدرية معهم، لا في فلسطين – وحدها – بل في العالم كلّه. وكل من الشعبين في حالة مماثلة للآخر من حيث موقف كل منهما من الرسالة الإلهيَّة التي حُمِّلـــها، والأمانـــة

الربّانيَّة التي اؤتمن عليها، إنّ وعد الله حق، وقد وعد- جل شأنه - أن تكون العاقبة للمتقين، ووعد أنّ الأرض يرثها عباد الله الصالحون، وذلك كائن لا محالة، فمن صلح وتحقق بالتقوى، وارتدى لباسها وتحلّى بالصلاح، وحققه في نفسه وفيما ينتمي إليه استحق ذلك ولا شك. ولا يكون ذلك إلاّ للذين يحملون القرآن حمل البشر المستخلفين، لا حمل الحُمُر المستذلّين، فكلا الشعبين "العربي والإسرائيلي" تم استخلافه في هذه المنطقة من قبل في مرحلتين مختلفتين، وكلُ منهما تلقى من الله – تبارك وتعالى – كتاباً وحُمّل رسالة وأمانة، وأمر باتّباع ما في الكتاب وعبادة الله – تبارك وتعالى – وكل منهما قد تصرف في تاريخ هذه المنطقة وأثَّر فيها، فبنو إسرائيل تفرقوا لمدة (١٤) قرناً من حين دخلوا أريحا في القرن (١٤) قبل الميلاد، وأمتنا قد بدأت هيمنتها على المنطقة مع الإسلام قبل (١٤) قرناً كذلك. ثم بدأت الهجمة الصهيونيَّة الحديثة، ووجدنا أنفسنا – الآن – وجهاً لوجه متصارعين في ذات المنطقة، وفي إطار مثَّلث التجوال الإبراهيميّ الجغرافيّ التاريخيّ – الذي صار بذلك الصراع منطقة ملتهبة – هم معهم المدد الأمريكيّ الغربيّ، وأهم منه مدد انحرافاتنا وأخطائنا، ونحن معنا مدد البترول والمعادن والثروات الكامنة في أراضينا ومواقعنا الاستراتيجيَّة التي قمنا عليها وأقمناعلى ثرواتنا السفهاء الذين نهانا القرآن أن نؤتيهم أموالنا، أو نمكّنهم منها؛ وتشير آيات الكتاب الكريم إلى هذا الموقف في قوله تعالى: **(... وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا...)** التي جاءت في سياق الآيات المبيِّنة لقدر بني إسرائيل، والمنبِّهة إلى جبريّة حكمت حلقات التاريخ الإسرائيليّ - كلّها- قامت على عهد بينهم وبين الله أخلوا به، وحاكميَّة إلهية تمردوا عليها، مرات ومرات. وعلى ميثاق أخذ عليهم أن يبيّنوا ولا يكتموا ويسمعوا ويطيعوا. فلم يفعلوا، وعلى شريعة خاصّة بهم ما رعوها حق رعايتها ومجموعة من المعجزات الحسِّيّة، الكافية التي طلبوها ومُنحوها، ثم تجاهلوها، واستمروا في غيِّهم وإفسادهم في الأرض. قال تعالى: **(**وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ

مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا * عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ (٤-٨).

فماذا عن أهل القرآن؟

إنّهم حمِّلوا القرآن، ثم لم يحملوه إلا لفترة قصيرة هي الفترة التي صاروا فيها "أمَّة" لاعتصامهم بالقرآن. بل جعلهم الذكر الحكيم خير أمَّة أخرجت للناس، ومنحهم الوسطيَّة، وضم إلى كنف الإسلام الشعوب الأميَّة التي أبى بنو إسرائيل الاهتمام بها ﴿قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ (آل عمران: ٧٥) ومكنهم من هزيمة القوّتين الأعظم في العالم القديم: "الفرس والروم" وما كانوا ليهزموا أيّاً منهما لو ركنوا إلى أنفسهم وطاقاتهم، ولكنّه أثر فعل الله في الواقع. وعونه لهم، ونصره لهم على عدوهم ﴿... وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّه﴾.

ثم بنوا حضارة كانت غرَّة في جبين الحضارات الإنسانيَّة. ولما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم، وظنّوا أن ما حقّقوا إنّما حققوه "...على علم عندهم..."، ولم يعودوا يلاحظون أثر فعل الله في كل ما تحقق، وما سيحدث: بدأوا مسيرة التراجع والتقهقر، ولم يرجعوا، ولم يلتفتوا إلى سنن القرآن، وقوانين الحركة في التاريخ والمجتمع. وبدأوا يعطون لكل ما يحدث لهم وحولهم من ظواهر مختلف التفسيرات إلاّ "التفسير القرآنيّ" لقيام الأمم، وسقوطها، وبناء الحضارات وانهدامها، ورقيّ الشعوب وهبوطها. وتبادل الأيام ومداولتها.

وهكذا انفكت عرى وحدة الأمة، وانتقضت عرى المسلمين عروة عروة فلم تعد علاقتهم بالقرآن إلاّ علاقة شكليَّة هي أشبه ما تكون بعلاقة جغرافيَّة أو قوميَّة.

وهكذا واتت الجرأة أعداء الإسلام أن يتصدّوا للقرآن ذاته، وقد كانوا من قبل يتحاشون أن يفعلوا ذلك صراحة لئلاّ تشعر قطع الأمَّة الممزَّقة بجدِّيَّة الخطر، وضخامته فتنتعش فيها دوافع الحياة، وتبدأ بمحاولات التأليف بينها، والالتئام والتلاصق والتلاحم من جديد.

لقد تجرؤا على القرآن، لأنّهم أدركوا أنّ الهوّة بين "حقيقة القرآن" وبين المسلمين قد أصبحت سحيقة؛ نعم إنّهم يحسنون زخرفته، وطباعته وتجليده، وقراءته على موتاهم، والتغنّي به في إذاعاتهم وفضائيّاتهم، وتحفيظه للناهين من أبنائهم. وعقد المسابقات بين

القارئين، أو الحافظين لسوره وآياته أحياناً. لكنّهم لا يحسنون فهمه، ولا التلقي عنه، ولا إدراك معانيه، ولا الإلمام بمقاصده ومراميه، فبينهم وبين ذلك مفاوز وقفار.

بعض أسباب الفصام الحالي بين القرآن وحملته:

يمكن إرجاعها لأسباب عديدة منها:

١-١ تراجع علاقتهم باللُّغة العربيَّة عامّة فضلاً عن لسان القرآن خاصّة. فمنذ قرون واللُّغة العربيَّة تشهد عمليَّات حصار وتهميش وسخريَّة وإقصاء كاد يجعلها لغة ثانويَّة عند أهلها. وفي عصرنا هذا حين يحلو للبعض أن يذكر "اللّغات الحيَّة" على حد تعبيرهم فإنّهم لا يجدون للعربيّة موقعاً بينها.

١-٢ سيادة اللّهجات العاميَّة أو ما أسميّته "باللّهجات العاميَّة المطوّرة" في أجهزة الإعلام، والتعليم والصحافة، فقل أن تجد من يلتفت إلى قواعد النحو والصرف، والأحكام اللّغويّة في هذه الأجهزة. يضاف إلى ذلك كثرة استعمال القيادات السياسيَّة، والدينيَّة وكثير من دوائر الدول للغة لاهي بالفصحى، ولا هي بالعاميَّة المحصنة، مما أوجد حالة اغتراب ملحوظ للّغة العربيَّة بين أهلها.

١-٣ إخراج اللّغة العربيَّة من دائرة اللُّغات العلميَّة واعتبارها غير صالحة لأن تكون لغة علوم.

هذا العامل قد أوجد حاجزاً سميكاً بين العرب والمسلمين وبين القرآن. (وسنتناول هذا العامل تفصيلاً في الحلقة الخاصة "بعربيَّة القرآن" من هذه السلسلة) ولذلك فإنّه ما لم تسارع الأمَّة إلى إعادة بناء الجسور بينها وبين لغتها العربيَّة الفصحى، وتيسير سبل تعليمها وتعلّمها فإن الفجوة بين الأمّة وبين القرآن سوف تزداد اتساعاً. مثل ما اتسعت الفجوة بين خط القرآن وإملائه، وبين الخطوط الأخرى بشكل جعل كثيراً من الأساتذة، وحملة الألقاب العلميَّة فضلاً عن الأبناء يخطئون في قراءة القرآن؛ لانعدام الإلف بينهم وبين إملائه وخطه.

٢-١ تكاسل الناس عن قراءة القرآن المجيد. لقد كان المسلمون في جيل التلقي لا يشغل أحدهم شيء عن القرآن، فلكل منهم ورد قرآنيّ يقرؤه بفهم ووعي وإدراك، ويعمل بمقتضاه. ولا يستطيع أحدهم أن يمضي يوماً أو ليلة دون قراءة في القرآن عداما

كانوا يقرؤونه في صلواتهم. ولذلك فإنَّ عقل الإنسان المسلم وقلبه ووجدانه يكون في حالة استحضار دائم للقرآن المجيد. ويكون القرآن في حالة حضور دائم في كل بيت، وبين أبناء الأسرة المسلمة كلّها.

٢-٢ لم تكن أيَّة شريحة من شرائح المجتمع تنسى نصيبها من القرآن: فالفقيه والقاضي والمفتي والعالم والمتعلم على صلة دائمة بآيات الأحكام في أقل تقدير وكل منهم يستدعي آيات القرآن كلّها – ولا بدَّ- ليتمكن من ممارسة مهامه.

وأرباب الحرف والصنائع، والمهتمون بقضايا التربية والتعليم وبناء الأخلاق والرجال والنساء والأساتذة والطلاب والباعة والتجار وسواهم، لكل صنف من أولئك نصيب من القرآن يشدُّهم إليه كلّه.

٣-٢ لقد كان أول ما يبدأ الأبناء بتعلّمه عند بلوغ سن التمييز القرآن يتعلمون قراءته في تلك السن المبكرة، ويتعلمون معه أهم أحكام التجويد، ومن رسمه وكتابته يتعلمون الخط فيرتسم ذلك – كلّه – في عقولهم وأذهانهم، وينطبع في قلوبهم. ويتأثر به وجدانهم، وتنفعل به نفوسهم. ولذلك أثر بالغ في التكوين العقليّ والنفسيّ للناشئة. وقد يحفظونه عن ظهر قلب فتنمو بذلك قدراتهم الذهنيّة، فيكسبون حصيلة لغويّة وفكريّة ومعرفيَّة ليس من السهل الحصول عليها بواسطة أخرى. لقد لاحظ أعداء هذه الأمَّة غياب ذلك – كلّه- ولاحظوا أن المسلم لم يعد قادراً على الاتصال بالقرآن مباشرة -بعد الفجوة اللّغوية الواسعة والقراءات التجزيئية –بل لا بد له من الوسائط العديدة، وفي مقدّمة تلك الوسائط. كتب التفسير والتأويل – قديمها وحديثها: وللمفسّرين مذاهب واتجاهات، وانتماءات كثيراً ما تتأثّر تفاسيرهم بها، فهناك تفاسير عقليّة، وتفاسير إشاريَّة، وتفاسير رجال الطوائف على كثرتها، وتفاسير أهل الرأي وأهل الأثر. وهناك تفاسير شحنت بالاسرائيليّات،[٢٥] والقصص وجل هذه التفاسير شكلّت وما تزال تشكّل عوائق بين القرآن الميسّر للذكر وبين تدبُّر القارئين وتفكرّهم وتعقّلهم وتذكرّهم؛ بل إنّها في كثير من الأحيان تجعل الناس مشغولين بها أكثر من انشغالهم بالقرآن ذاته – لأنّها لم تُعدَّ

[25] هناك دراسات كثيرة صدرت حول الإسرائيليّات في التفسير والحديث وغيرهما، منها ما أورده ابن حزم في مواضع متفرقة من "**الأحكام**" وما نبّه إليه ابن تيمية وابن خلدون وغيرهما. ومن المحدثين كتب في ذلك الشيخ الذهبي وأبو شهبه ومحمد عزت دروزه وآخرون. وراجع بحثنا المنشور في مقاصد الشريعة حول "**الفقه الإسلامي ماله وما عليه**" نشر دار الهادي في بيروت.

لقيادة القارئين وهدايتهم إلى تلاوة القرآن حق تلاوته وتدبُّره، وتعليمهم طرائق ترتيلــه وتلاوته حق التلاوة، بل لتبيِّن لهم معانيه – كما يفهمها المفسِّرون والمؤّلون – في إطـــار النسبية البشريّة ونماذج المفسرين المعرفيّة وطبائعهم في التلقي والفهم وقدراهم، وتأثّرهم – بعد ذلك – بسائر المعطيات والمؤثّرات الفكريّة واللّغويّة والثقافيّة، وما إليها مما تزخر بـــه بيئاهم.

فهي كالترجمات بالنسبة للناطقين بغير العربيَّة لن يتمكن القارئ للقرآن بواسطتها أن ينفذ إلى إعجازه، وسموّ بلاغته وفصاحته، وإدراك عظمة بيانه. ومكنونات آياته والحظوة بأنواره وتأثيره وهدايته. بل يقتصر وعيه على جزء من وعي المترجم الذي عبَّر عنه بترجمته المحاطة بكثير من جوانب القصور والنّسبيَّة. قد يكتسب الإنسان من التفـــسير والترجمـــة عائداً معرفيّاً أو عقليّاً محدوداً، لكن من الصعب أن يحصل من ذلك على العائد النفـــسيّ والوجدانيّ، أو على العائد العقليِّ الممتد المتَّسع الذي يصوغ الشخصيّة الإنسانيَّة الإسلاميَّة بكل جوانبها.

٢-٤ شيوع الأفكار الدهريَّة والعلمانيَّة التي أكدت وما تزال تؤكد أن القرآن المجيد "كتاب دينيٌّ" شأنه شأن أي كتاب دينيٍّ آخر تنحصر اهتماماتـــه بالـــشأن الأخـــروي، والتعبّدي الذي يغلب أن يصنَّف في "اللامعقول" فانفصلت النخبة وأصـــحاب النفـــوذ السياسيّ والأكاديميّ في الغالب عن القرآن، واتخذته مهجوراً.

وكرست "ازدواجيَّة التعليم"، هذا البعد الخطير الذي هيمن على التعليم في ســـائر بـــلاد المسلمين. وبذلك سادت الغفلة عن "حاكميّة الكتاب، وشريعة التخفيف والرحمة، وختم النبوّة" وسائر خصائص القرآن. ولم يعد الكثيرون يدركون القرآن، واشتماله على الذكر الذي جاء النبيّون – كافة – به، وكونيَّته وتصديقه على كل ما سبق وهيمنته على ذلـــك كلّه.

ومن غفل عن مبنى القرآن فلن يتمكن أن يدرك خصائصه ومزاياه.

وإذ اطمأن أعداء الله وأعداء القرآن والمتربصون بهذه الشعوب (التي كان القرآن قد جعل منها خير أمَّة) إلى أن القوم قد اتخذوا هذا القرآن مهجوراً: جاؤا "بفركاهم المفـــبرك الباطل" وهم يتوقعون أن هذه الأمّة التي لم تعد تحمل القرآن إلا "بالطريقـــة الحماريَّـــة"

سوف يجوز عليها باطلهم، المعزَّز بالزخرف وبالعلم، والمؤيَّد بالقوى الصناعيَّة المتحكّمة في مصائر العالمين، القادرة على تهيئة الأجواء له، وربما فرضه على بعض الشعوب. وبهذا يحقّقون مجموعة كبيرة من الأهداف.

أولها: تحصين شعوبهم وشعوب النصرانيّة وشعوب العالم ضد الإسلام وتزويدهم بأجهزة مناعة واقية ضده، وضد انتشاره في ديارهم.

ثانيها: كسب وتنصير أو تكفير جهلة المسلمين – الذين لم يعد لديهم من الإسلام أكثر من انتماء جغرافيّ أو قوميّ أو تاريخيّ. وهم الغالبيَّة الساحقة من المسلمين اليوم.

ثالثها: فتح قلوب وعقول الشعوب الأخرى والمسلمة أيضاً إلى أنّه لا بديل بين يدي البشريَّة إلاّ "النصرانيّة" والمنظومات السائدة في ديار أهلها، فهي ديانة القوى العظمى ، ولها باع طويل في صناعة حضارتها وتقدمها، وهي ديانة صنَّاع الديمقراطية ودعاة الحريّة وحقوق الإنسان....

أما القرآن فإنّهم قد حكموا عليه بأنّه أهم منابع الإرهاب والتطرّف والتعصُّب، والصراع، واضطهاد الأقليَّات. وإيجاد الدكتاتوريِّين، وصناعة الطغاة.

فيجب تضافر البشريَّة كلها على محاصرته، وإزالته من الوجود وإحلال "المفبركان الباطل" محله!!

وماذا بعد؟:

إنّ الدفاع عن النفس حق مشروع لا ينازع فيه أحد من الناس. والقرآن المجيد هو روح الإنسان المسلم ونفسه وعقله وقلبه ووجدانه، والمساس به إعدام لذلك – كلّه- ومن هنا فإنّ الدفاع عن القرآن دفاع عن النفس وعن الهُويَّة العربيَّة والإسلاميَّة. أمّا بالنسبة للعرب خاصة فإن مسئوليتهم أكبر، فإن القرآن إذا كان للعربي المسلم مصدر دين وهداية، وموصِّلاً إلى الحقيقة، فإنّه بالنسبة للعربي النصرانيّ مصدر ثقافته ولغته ووعيه بذاته القوميَّة. وعلى هذا فإن العرب كافة مطالبون بإدراك مسئوليَّة كل منهم عن القيام بشرف الدفاع عن القرآن المحفوظ إلهيّاً، الغنيّ عن دفاع المخلوقين، لكنّها "سنَّة التدافع الماضية" التي تحتِّم على حملة القرآن أن يدافعوا خصومه، ويحولوا بينهم وبين الوصول إلى حريمه وحماه. فبئس

حملة القرآن من لا يعرفون للقرآن قدره وقيمته، وبئس حملة القرآن من لا يحسنون المدافعة عنه، والحيلولة بين خصومه وبين النيل منه.

ومعركة القرآن تختلف عن سائر المعارك الأخرى في طبيعتها، وفي أسلحتها، وجندها وقادها ووسائل تحقيق النصر فيها.

كما تختلف صفحات "المدافعة" فيها عن صفحات سائر أنواع المعارك. وتختلف استراتيجيتها عن سائر أنواع الاستراتيجيّات الأخرى. وإن كانت تشارك بعض أنواعها في إجراءاتها من سَوْقٍ وتعبئة وتحصين وكر وفر ودفاع وهجوم، وما إلى ذلك.

إنّ معركة القرآن – في حقيقتها- معركة الإنسانيَّة ضد خصومها وأعدائها. ومعركة الدين ضد الإلحاد والشرك والكفر والنفاق. ومعركة القيم ضد التحلُّل، ومعركة الأخلاق ضد الفجور، ومعركة الخير ضد الشر، ومعركة الحق ضد الباطل. والصدق ضد الكذب والزور والافتراء، إنّها معركة الإرهاب والإرجاف الحقيقيَّين ضد الأمن والطمأنينة والإيمان والسلام والإسلام، إنّها معركة سائر الأديان التي صدَّق القرآن عليها وهيمن ضد الجاهليَّة والتجديف والإلحاد والزندقة. ومن خصائص هذه المعركة أنّ مواقع أطرافها واضحة وأن نتائجها محسومة مسبقاً فالنصر حليف الطرف الذي يقف إلى جانب القرآن المجيد – الذي لم يستطع أحد هزيمته عبر التاريخ، والمنهزم عدو القرآن الكريم مهما كان حتى لو تحالفت معه الجن والإنس بكل ما لديهم من أسلحة ووسائل فمنزّل القرآن لم ينزّله ليهزم، ولن يتخلى عن حفظه.

أماّ معركة المدافعة بين حملة القرآن وأعداء القرآن فتحتاج إلى ما يلي:

أولاً: رد الاعتبار إلى اللُّغة العربيَّة وإعطائها كل ما تستحقه من اهتمام، وتيسير سبل تعلّمها وتعليمها بكل ما هو ممكن من الوسائل المتاحة وما أكثرها.

ثانياُ: اعتبار إتقانها شرطاً لا تساهل فيه في تولي المسئوليَّات العامَّة، والوظائف المختلفة.

ثالثاٌ: العناية بترجمة مصادر ومراجع العلوم المختلفة من سائر اللّغات إلى العربيّة وتعريب المصطلحات العلميَّة، واختيار أفضل المصطلحات والمفاهيم المعبّرة عن المعاني والأفكار العلميَّة بأدق الصيغ، وأكثرها ملاءمة.

رابعاً: تعريب التعليم الجامعي بكل أنواعه من طب وصيدلة وعلوم وهندسة، وتعريب أسماء الأدوية، وغيرها.

خامساً: استخدام "الحاسوب" وتقنياته استخداماً يخدم العربيَّة، وجعل اللّغة العربية موازية للغات الأوربيَّة والأمريكيّة في تعاملها مع "الحاسوب" وأية أجهزة متطورة أخرى.

سادساً: تبنّي "منظمة المؤتمر الإسلامي" بكل مؤسّساتها الدعوة إلى نشر اللّغة العربيَّة في العالم الإسلامي، وتيسير ذلك بكل ما هو ممكن ومتاح من وسائل. وتجنّب تكرار الخطيئة التي وقعت فيها الجامعة العربية سنة (١٩٥٤) حين عجزت أو تكاسلت عن تقديم المساعدات اليسيرة التي طلبتها باكستان لجعل العربيَّة لغة رسميّة لها، وتعريب البلاد.

سابعاً: على الدول العربيَّة البتروليّة أن تخصص جزءاً من إيرادات النفط لوضع تلك العائدات في بناء مؤسّسات تحت مظلة "منظمة المؤتمر الإسلامي" و"الجامعة العربيَّة" و"الأزهر"، و"المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية " ومجامع اللغة العربيّة وغيرها لوضع استراتيجيَّة شاملة لتحقيق ما ذكرنا.

بناء الوعي بالقرآن:

وأمَّا بناء الوعي بالقرآن لدى "الأمَّة القطب" ومن بعدها البشريَّة – كلّها – فيعتمد على أمور كثيرة، منها:

أوّلاً: أن ندرك بأنّ القرآن حين يخوض معركة ضد أي نوع من أنواع خصومه فإنّه لا ينطلق من موقع ضعف أو دفاع، بل من منطلق التحديّ والإعجاز ليسقط أسلحة خصومه – كلّها – مرّة واحدة. فهو كتاب يقرأ باسم الله وبمعيَّته يأخذه من يأخذه بقوَّة التحدي والإيمان بأنّه أمضى الأسلحة وأقواها، ولذلك فإنّ على من يحارب معركته أن يجاهد الناس به جهاداً كبيراً. فلاسلاح أمضى منه في معركة دفاعه عن نفسه.

ثانيا: ولكي ننطلق بالقرآن من منطلق التحدي والإعجاز، ونجاهد الناس به جهاداً كبيراً. على علمائنا ومفكرينا وحملة القرآن فينا أن يكتشفوا "الرؤية الكونيّة" للقرآن الكريم، ويتبّنوا أبعادها ويتسلّحوا بها وبفهمها وفقهها. و"الرؤية الكونيّة القرآنيَّة" رؤية لا يصل إليها من لا يدرك "إطلاقيَّة القرآن" وأنّه لا صلة بينه وبين النسبيّة والاحتماليَّة بحال. وما ينبغي أن يسقط عليه شيء منهما.

والقرآن بإطلاقيّته قد استوعب الكون المطلق وحركته بشكل موضوعيّ فما تـــرك جانباً من جوانب الخلق الإلهيّ لم يتناوله، ولم يعطه التفسير المناسب من عالم العهد حـــتى عالم الجنَّة والنار. كما استوعب "الإنسان المطلق" من حيث إنسانيَّته؛ فإطلاق الإنـــسان منصرف إلى "الحقيقة الإنسانيَّة"، لا إلى الأفراد الذين تتجسَّد تلك الحقيقة فيهم بـــشكل نسبيّ.

هنا يبدو القرآن كونيّاً في نظره إلى الإنسان والطبيعة والحياة والقيم، والشريعة وسائر موضوعاته، فهو غير مقيَّد في أطر الزمان والمكان والإنسان، بل هـــو مطلـــق في بنائيَّتـــه ونظمه.

مصدّق لما بين يديه من كتاب. ومهيمن على الذكر بمراجعته ونقده وتنقيته، ومَيْـــزِ كل ما أضافه الناس إليه عن الحق والصدق الذين نزل بهما، ثم هيمن عليه هيمنة الحفـــظ الذي لا يسمح بالإضافة إليه مرة أخرى أو الحذف منه. وأنّه بخصائصه هذه التي ينفرد بها من "الإطلاق والاستيعاب والتجاوز والتصديق والهيمنة ومنهجيّته المعرفيّة"، كل أولئـــك خصائص جعلت منه كتاباً كونيّاً لا ينحصر في قوم أو زمان أو مكان. كما جعلت منـــه كتاب البشريّة الشامل العام الكامل، الذي يفسِّر بعضها بعضاً للمتدبِّرين، والذي يسَّره الله – تعالى – للذكر – للتالين المتذكرين.

والذي يستطيع أن يغوص إلى جواهره ولآلئه القادرون على الفهم العميق، والتحليل الدقيق ليصوغوا منه الخطاب العالميّ القادر على معالجة المأزق الحضاريّ العالميّ الذي يهدِّد الخليقة كلَّها.

والذين يوفقهم الله لاكتشاف "الرؤية الكونيّة القرآنيَّة" سوف يـــدركون بالأدلـــة القاطعة أنَّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم من الاتجاهات الوضعيّة – كلّها – مضافاً إليها التيارات الّلاهوتيَّة جميعها بتلك "الرؤية الكونيّة" .

"فالوضعيَّة قد ساقت الإنسان إما إلى "جدل الإنسان الذاتيّ" وإما إلى "جدل الطبيعة الجبريّ"، وكلاهما يجرِّد الإنسان عن مقوِّماته الكونيّة؛ فإذ يؤدي "جدل الإنسان إلى تفريغ المطلق الإنسانيّ ولا محدوديَّته في العبثيَّة واللاانتماء والفرديَّة والليبراليّة يؤدي جدل الطبيعة إلى جبريّة وحتميَّة تستلب خصائص الكونيّة الإنسانيّة.

واللاّهوت قد ساق الإنسان إلى جبريَّة غيبيَّة أحاديّة حيث يستلب الغيب الإنسان والطبيعة معاً فيضيع الفارق بين المطلق والنسبيّ.[٢٦]

ثالثاً: لكي نتقدم بالقرآن إلى العالم ونتحدى الناس به نحن في حاجة إلى مراجعة تراثنا في علوم القرآن لتنقيته مما لحق به أو أضيف إليه، ومحاكمته إلى القرآن المجيد ذاته للتصديق عليه، والهيمنة على ما فيه وبعض هذه العلوم في عصور إنتاجها برهنت على مدى عناية علمائنا المتقدمين بكل ما يتعلق بالقرآن المجيد. وبعضها الآن صار يشكل عبئاً على القرآن، وكثيراً ما يستخدمها خصوم القرآن لإثارة شيء من البلبلة في صفوف المؤمنين الذين ليس لديهم معلومات كافية عن القرآن – مثل "فنون القراءات، وتقسيم القراء أحوال الإسناد فيها إلى قراءة ورواية، وتقسيم القراءات إلى متواتر وآحاد وشاذ، فمثل هذه الأمور التي تداخلت فيها علوم الإسناد بعلوم القرآن ينبغي أن تحال إلى البحث الأكاديمي المتخصّص. ولا ينبغي أن يخرج القراء ولا دور النشر عن المصحف الإمام بحال، إذ لحسم مثل هذه القضايا كان المصحف الإمام، وتم الاجماع عليه وتعميمه على الأمّة.

ومثلها قضية حديث "الأحرف السبعة"، والمعرَّب والدخيل، فهذه أمور ينبغي أن لا تخرج عن دوائر البحث الأكاديميّ المتعمِّق.

ومثلها بعض الأخبار المتعلقة بجمع القرآن وتدوينه وقضايا الناسخ والمنسوخ والتعارض والترجيح فكل تلك الأمور تندرج في إطار تلك القضايا ذات الصبغة الأكاديمية. وكلّها يحتاج إلى مراجعة، وتقويم وحسم إذ أنّ هذه الأمور كما جرى تداولها في الماضي واستمر، هي موضع استغلال للخصم، وفتنة للأبناء لا ينبغي أن تستمر أبوابها مشرعة أمام خصوم القرآن.

رابعاً: إشاعة الدراسات المقارنة بين الكتب الثلاثة التوراة والإنجيل والقرآن وذلك بدراسة تاريخ كل منها، وطرق نقله وحفظه، والمقارنة بين مفاهيم وتصورات كل منها للدين وللألوهيّة والربوبيّة والنبوَّة والوحي والحياة الدنيا والآخرة والأمثال والقصص والتاريخ الإنسانيّ، وتصور كل منها للإنسان وللكون والمرأة والقيم والأخلاق وآثار كل

[26] انظر **العالمية الإسلاميَّة الثانية** /محمد أبو القاسم حاج حمد(٥٠٢/١)ط.ثانية بتقديمنا بيروت: دار ابن حزم ،١٩٩٦.

منها في أهم القضايا قديماً وحديثاً كالعلم والجزاء والعقاب، والتشريع العائليّ والمجتمعيّ والجبر والاختيار وما إليها من قضايا أساسيَّة تناولتها تلك الكتب.

خامساً: العناية بدراسة القرآن بأشكال ميسَّرة تلاحظ في تفاصيلها الأعمار والمستويات والجنس واختلاف البيئات وما إليها. مع شيء من العناية بتفسير المفردات القرآنيَّة ببعضها كما فعل الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن، ليكون القرآن نفسه المبيِّن لمعانيه، وتستقر المعاني القرآنيَّة ذاتها في العقول، فتكون أعون على التأمُّل فيه.

سادساً: تطوير مدارس "تحفيظ القرآن" بحيث تصبح مراكز لإيجاد إنسان القرآن، ولإحداث التنمية العقليّة والذهنيّة والنفسيّة بالقرآن، وتعليم الطلاب فيها تاريخ القرآن، والفنون التي ارتبطت به من كتابة وزخرفة، وتجويد، وخطوط بحيث توجد مجموعة من الفنون الأساسيَّة المتميزة بتأثير القرآن في البيئات المسلمة ليس فيها أي مجال للشرك، ومن المفيد إجراء بعض المقارنات مع الكتب الأخرى في هذا المجال: التوراة والإنجيل.

الخاتمة:

وبعد، فهذه بعض ملامح سبيل "الخلاص الإنساني بالقرآن" تنبِّه إلى ما بعدها، وتشير إلى غيرها، وتفتح أمام الباحثين السبيل لإنضاجها واستكمالها وإشاعتها، وإيجاد الوعي بها، لعل الله يهيء للبشريّة أمر رشد، وينقذها من معاناتها، ويهديها سبيل الرشد، فهو القادر على ذلك، والمرجَّى له. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الحلقة الثانية

"الجمع بين القرائتين"

وكتبه

أبو أحمد: طه جابر العلواني